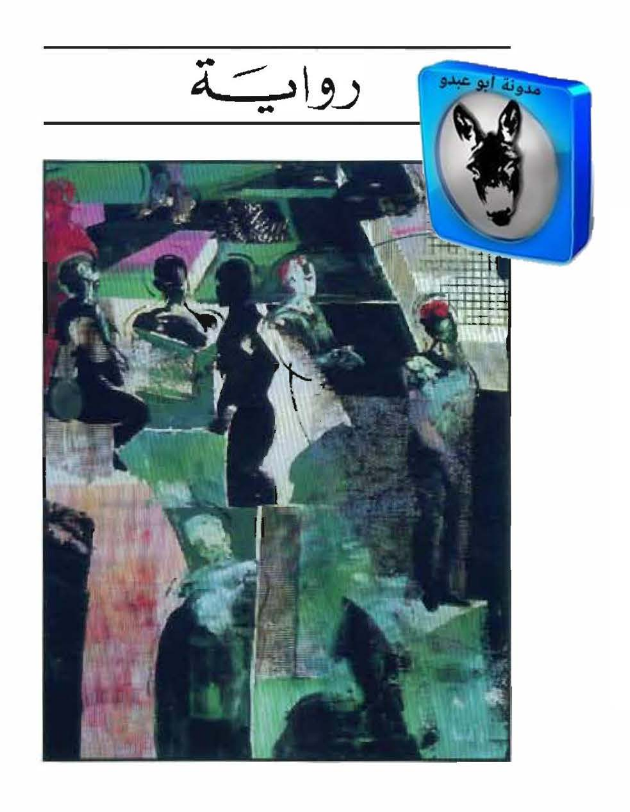
حيدر حيدر



«ثلاث حكايات عن الموت»

رواية







* حيدر حيدر
* مراثي الأيام
* جميع الحقوق محفوظة © Copyright
* الطبعة الأولى 2001
* الناشـــــــر : أمواج للطباعـــة والنشـــر والتوزيــع
ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيــع
* ص.ب: 113/6435 بيروت ـ لبنان
* هاتف: 961 1 750054 ـ فاكس 961 1 750053
* E-mail: daramwaj@inco.com.lb
* التوزيع على الإنترنت: www.alfurat.com

حيدر حيدر

مراثي الأيام

«ثلاث حكايات عن الموت»

رواية

مراثي الأيام

إشارة

هذه القصة، غير المألوفة في بنيتها الروائية، والتي تتوالد وتتناسج حكاياتها، حيث تبدو متناثرة كبذار الحَبّ في الأرض عبر فصول الزمن. ليست قصة أو رواية تاريخية رغم مرجعيتها التي تستند إلى التاريخ والتراث معاً. تاريخنا وميراثنا المتقاطعين بظلال الظلمة والنور في الحقب القديمة والحديثة.

ما كانت، كنسيج روائي موحّد الهيكل، في ذاكرتي ولا في فضاء أفقي أو مشروعي الأدبي حين بدأتها.

لكن المصادفة الغريبة والمذهلة دفعتها بإلحاح إلى عتبة الوعي والذاكرة والمباشرة بها، حين هيمنت على تفكيري وفرضت ضرورة بنائها كمشروع راهن.

ولعلّ المصادفة، شبه العفوية، التي قادتني إلى هذه القصة المنسوجة من مشاهد مؤلمة ومرّة حتى تخوم الوحشية، حرّضتني وأنا أقرأ تاريخ الملوك والأمم المعروف بتاريخ الطبري.

وخلال رحلتي مع هذا التاريخ، الذي يبدأ من آدم، عابراً فضاء التاريخ العربي والإسلامي حتى نهاية الدولة العباسية، أذهلتني وصدمتني تلك الأحداث والوقائع الدموية والساديّة لأولئك الحكّام والخلفاء في العصور القديمة.

هؤلاء الذين لانعرف أسرارهم أو لم يُكشف لنا تاريخهم الأسود الحافل بالفجائع ووحشية الاستبداد الفردي. وخلال التأمل

والمحاكمة والمقارنة والاستقراء للتاريخ المعاصر، توصّلت إلى نتيجة، لست الوحيد في استنتاج الوصول إليها ربما، كانت هاجساً واحتمالاً فيما مضى، مؤداها: أن تاريخ السلطة العربية في الماضي والحاضر لم يتغير سوى في الشكل والمظهر، أما الجوهر فواحد ويبدو شبه سرمدي، لكأنه متأصل بنيوياً وسلالياً وجينياً (داخل علم الهندسة الوراثية) في التكوين السلطوي ونظرية الحكم.

وتأسيساً على هذا التاريخ، بدا لي الزمن العربي شبيهاً بخذروف يدور حول ذاته في فضاء من الدم والفتك والعسف والأهوال اللانهائية.

فحين نقرأ ونتذكر ما فعله أبو العباس المعروف بالسفّاح بجثث خلفاء بني أمية، عندما أخرج الجثث من قبورها، وراح يجلدها، ثم أحرقها ونثر رمادها في الريح، تعرونا حالة اشمئزاز ورعب وكراهية جرّاء تلك الروح السادية المتوحشة.

وعلى منواله فعل قادته بعد القضاء على الدولة الأموية ودخول دمشق. فعمّه عبدالله بن علي أباح القتل في المدينة على مدى ثلاث ساعات، وحوّل الجامع الأموي إلى إسطبل لدوابّه وجماله. ثم نبش هو الآخر قبور بني أمية فلم يجد في قبر معاوية إلا خيطاً أسود، كما نبش قبر عبد الملك ابن مروان فوجد جمجمة. أما هشام بن عبد الملك فقد وجده صحيحاً فأخرجه وضربه بالسوط وهو ميت، وصلبه أياماً ثم أحرقه ودقّ رماده ثم ذرّه في الريح.

ولما تولّى أبو جعفر المنصور الخلافة بعد أخيه السفّاح في العام 136 هجرية خطب في الناس قائلاً:

«أيّها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده. وأنا حارس الله على ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه، فقد جعلني الله عليه قفلاً إذا شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم، وإذا شاء أن يقفلني عليه أقفلني».

وهكذا في سياق التأمل والوعي النقدي ولدت الأسئلة: كيف؟ ولماذا؟ وإلى متى سيستمر هذا التوحش؟ وهل من أفق مستقبلي محتمل؟

الوقائع والأسئلة، قديمها وحديثها، بما يمكن أن أسمّيه: السدّ أو المأزق الحضاري.

لقد أدركت، من خلال تيار الوعي والذاكرة، مدى التضليل بالوعي الحضاري القديم، فيما ضُخَّ في أعماق وعينا من أنوار وإشعاعات سرابية حول مجد وألق وجلال حضارتنا القديمة، مجسّدة برموز الخلفاء والأمراء والقادة والملوك العادلين والسُّمحاء، المتوّجين بهالات القداسة والعظمة الزائفة.

وبتأمل هادئ واستنتاج منطقي، اقتنعت، من خلال الوقائع والأحداث، والمقارنة بين الماضي والحاضر، أن الحاكم الفرد، المعصوم، كليّ القدرة، والممسك بزمام السلطة خلال خمسة عشر قرناً، هو اللوياثان الجرثومي للخراب الحضاري. وهذا اللوياثان (الوحش الأسطوري) المتقمّص وهْمَ ممثل الإله على الأرض، يصدّ، بقوّة مؤسساته وجهازه القمعي، أيّة آمال أو أحلام أو أشواق، كما يقطع الطريق على إمكانية فعل التغيير، وتشييد حضارة جديدة، تتأسس على الحرية والعدالة، واجتياز عتبة الزمن الماضي للدخول إلى العصور الحديثة. فشهوة أو غريزة السلطة، بما هي تملّك وجنون عظمة واستيهام إلهي، تنتج بداهة جرثوم القمع والإرهاب والقتل وإزاحة الآخر غير الموالي ومحوه من الوجود. هذا هو المفصل أو حجر الزاوية في هذه القصة، وأي تأويل انتقائي، أو تعميمي للشمولية الحضارية في مساراتها الأخرى، سيخرج القصة عن مدارها ليدخلها في مهبّ الأهواء والميول العصبية التي تضيّع الحقائق في متاهات وأوهام العظمة الحضارية، المشعّة بأنوار أزمنة المجد الأولى التي أفَلَتْ شمسها.

وهكذا من خلال القصة التي سنروى يبدو الرحيل إلى جزيرة حي بن يقظان لا يعدو كونه رحيلاً مجازياً، تخييلياً، عبر محاولة لإزاحة كابوس التاريخ وظلاله السوداء، لكنه يستند في جانب منه إلى أساس واقعي في رواية حي (كما رواها ابن طفيل).

فأمّ حي التي ولدته وخافت من الملك الجبّار أن يقتله وضعته في تابوت، بعد أن أحكمت زمّه وأروته من الرضاع، ثم خرجت به في أول الليل في جملة من خدمها وثقاتها إلى ساحل البحر، وقلبها يحترق صبابة وخوفاً عليه، ثم ودّعته ورَمَتْه في اليم قائلة بدعاء الأم الولهى: «اللهم إنك قد خلقت هذا الطفل ورزقته في ظلمات الأحشاء، وتكفلت به حتى تمّ واستوى، وأنا قد سلمته إلى لطفك، ورجوت له فضلك خوفاً من هذا الملك الغشوم، الجبار، العنيد. فكُنْ له عوناً وسنداً في أوقات الشدّة يا أرحم الراحمين».

باب المراثي والأضرحة

قال الراوي التاريخي الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: وفي أواخر السنة الثامنة والستين للهجرة، بدأ المختار بن أبي عبيد في الكوفة يطلب البيعة في الخلافة للإمام المهدي محمد بن الحنفية، وهو من أولاد علي بن أبي طالب.

حدث ذلك بعد موت يزيد بن معاوية، ومقتل الحسين بن علي. وفي هذه السنة وثب عبد الله بن الزبير في الحجاز، واعتصم بالبيت الحرام في مكة طالباً البيعة بالخلافة.

وفي تلك السنة كان الخليفة في الشام مروان بن عبد الملك.

وفي السنة التاسعة والستين خرج عمرو بن سعيد بن العاص، (كان والياً على مكة في خلافة يزيد بن معاوية) خرج في دمشق على طاعة الخليفة عبد الملك بن مروان، وتحصن فيها، بعد خروج الخليفة إلى «عين الوردة» في العراق لقتال مصعب بن الزبير. وما أن وافى خبر خروج عمرو على الخليفة حتى عاد الخليفة عبد الملك قبل وصوله عين الوردة لاسترداد دمشق. ولما دخلها أرسل في طلب عمرو، وكان في مجلسه ابن يزيد بن معاوية، فأشار عليه ابن يزيد ألا يذهب إلى عبد الملك. وإذ سأله لماذا؟ روى له رواية عن اليهودي كعب الأحبار يقول فيها: إن علياً بن أبي طالب قال للخليفة عثمان بن عفّان حين استشاره وهو محاصر في بيته، بعد أن تألّب عليه

المسلمون من جميع الأمصار بغية قتله، بعد أن ولّى أهله وأقاربه على الولايات والبلدان، وسلّطهم على رقاب العباد، ومتّعهم بالمال والجاه والجباية والخراج لهم وللخليفة. وانتشر الفساد والرشوة والشقاق بين القبائل، وتغلّب الولاء لبني أمية على الولاء للإسلام؛ حيث اتخذ الخليفة لنفسه الأموال، ممتلكاً الدور والأراضي والضياع من بيت مال المسلمين، كما أساء إلى صحابة الرسول فأهانهم وأمر بحبسهم وضربهم ونفيهم.

قال علي لعثمان: إن أشرّ الناس عند الله إمام جائر ضلّ. إنه ليؤتى به يوم القيامة وليس معه نصير أو عاذر، فيُلقى به في نار جهنم فيدور فيها كما تدور الرحى، ثم يرتطم في غمرتها. إنني أحذّرك الله وسطوته ونقمته. كما أحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنه يُقال: يُقتل في هذه الأمة إمام فيُفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة.

وتابع كعب الأحبار، كما روى ولد يزيد بن معاوية لعمرو بن سعيد، بأن عظيماً من عظماء ولد اسماعيل بن ابراهيم الخليل يرجع فيغلق أبواب دمشق، ثم يخرج منها فلا يلبث أن يُقتل.

وردّ عمرو بن سعيد بن العاص مباهياً: والله لا أخاف ابن الزرقاء هذا (أي عبد الملك بن مروان) حتى لو كنت نائماً، مع أنني رأيت في المنام أن عثمان بن عفان جاءني البارحة وألبسني قميصه وباركني.

وفي العشيّة مضى عمرو ومعه مئة رجل من مواليه إلى عبد الملك.

قال الراوي: وكان عبد الملك قد أمر الحرّاس أن يأسروا رجال عمرو، ويُحبسوا داخل أبواب القصر. وإذ دخل عمرو بن سعيد ومعه وصيف فوجئ ببني مروان حول الخليفة فتوجّس شراً. رحب عبد الملك بعمرو، ثم أجلسه قربه على السرير، وراح يحدثه معاتباً على

خروجه، ثم أمر غلامه بتجريده من سيفه، وحين تأبّى وغضب من الأمر تناول عبد الملك من تحت السرير جامعة وأغلالاً وطرحها عليه فأسَرَه فيها.

قال الراوي: وعند أذان العصر خرج الخليفة ليصلّي بالناس بعد أن أمر ابنه عبد العزيز بقتل الرجل المغلول.

ولما رفع عبد العزيز سيفه ليجهز عليه صاح به عمرو مستجيراً: أستحلفك بالله والرّحِم أن يتولى ذلك من هو أبعد رحِماً منك (وكانوا جميعاً من رحم بني أمية) فألقى عبد العزيز السيف وجلس.

وإذ عاد عبد الملك من الصلاة فوجئ بالرجل حيّاً، فسأل ابنه: ما منعك من قتله؟ فقال بأنه ناشدني الله والرّحم فرقّ قلبي له. فقال الخليفة منتهراً وشاتماً ابنه: أخزى الله أمك البوّالة على عقبيها لأنك تشبهها.

ونادى عبد الملك غلامه: ياغلام هات الصمصامة. فأتاه بسيفه، ثم جلس على صدر عمرو وذبحه من الوريد إلى الوريد. ولما خرج إلى الصلاة ثانية أمر الغلام بأن يُلقى برأس عمرو بن سعيد إلى الناس وأصحابه من شرفة القصر.

قال الراوي المعاصر غيلان الدمشقي: لعل نبوءة علي بن أبي طالب، إذا صحّت رواية الراوي التاريخي، ما كانت رجماً في الغيب، أو قراءة في كتاب الرمل. كانت، على ما يبدو، خشية وتوجّساً وخوفاً من انقسام الأمة على نفسها، ودخولها في حروب وثارات كما كانت في جاهليتها الأولى.

فعبر دوران عجلة الزمن حوالى أربعة عشر قرناً تواصلت جحافل الخيول تضرب صدر الصحراء، واثبة من ثغر إلى آخر، ومن

مملكة إلى أخرى، فوق الصدور والجثث والرؤوس المبتورة، كما لن تُغمد السيوف المهندة إلا بعد أن تُسقى بالدماء وتروى في المذابح الأهلية. وفي السريرة الداخلية لصرخة الهيجان البدائية، كانت تبدو للرائي المبحر في سفينة الزمن أن السيوف والنبال والرماح وحوافر خيل الجند تشي (بعد الاستعارة للأنماط الأولية من يونغ) بروح الطفولة الأولى للجنون الوحشي ولذة القتل، وتفريغ الشحنة والطاقة المستعرتين في بحار تلك الروح البدائية.

وهكذا بعد الحروب والوثوب والفتك التآمري شبقاً إلى العرش، كانت النفوس تهدأ كما بحر بعد عاصفة. لكن تحت الطبقات الجيولوجية للأرواح القلقة والطبائع الذئبية كان يبدأ ارتسام تشكيلي آخر لقتال دموي جديد. وثوب افتراسي على الإمارة أو الخلافة بقوّة السيف والمؤامرة النائمة تحت غفوة الأفعى.

قال الراوي التاريخي: «وحمل شَمِر بن ذي الجوشن حتى طعن فسطاط الحسين، ونادى: عليّ بالنار كي أُحرق هذا البيت على أهله. وصاحت النساء مولولات وهنّ يخرجن من الفسطاط. وصاح الحسين بالشَّمِر: يا ابن ذي الجوشن أنت تدعو بالنار لتحرق بيتي على أهلي. أحرقك الله بالنار يوم القيامة».

قال الراوي: وسُلِبَ الحسين بعد مقتله ما كان عليه، وتوزعتها القبائل والعسكر. فأخذ سراويله بحر بن كعب، وأخذ قطيفته قيس بن الأشعث، وسلب نعليه رجل من بني أوْد يقال له الأسود، وأخذ سيفه رجل من بني نهشل. ومال العسكر على الورْسِ والحلل والإبل فانتهبوها. وأغاروا على نساء الحسين وثقله ومتاعه، فنزعوا ثياب النسوة، وداسوا جسد الحسين بخيولهم حتى رضّوا ظهره وصدره، ثم احتزّوا رأسه وسرّح به إلى عبيد الله بن زياد.

قال الراوي: وجاء بالرأس رجل يُسمى خولي بن يزيد فوجد

باب قصر عبيد الله مغلقاً فحمله إلى منزله، ثم ركَنهُ في إجانة (زاوية) من أركان الدار. وحين دخل خولي على زوجته وهي نوّار بنت مالك بن عقرب، بدا مستبشراً مزهوّاً بما غنم، ممنّياً النفس بليلة حمراء بعد حرب حمراء.

وإذ آوى إلى فراشها سألته زوجته: أراك مضطرباً ومغتبطاً فما الخبر؟ فقال لها: جئتكِ بغِنى الدهر. هذا رأس الحسين معك في الدار. وصرخت المرأة: ويلكَ. جاء الناس بالذهب والفضّة وأتيتني برأس حفيد رسول الله! والله لا يجمع رأسي ورأسك بيت أبداً بعد اليوم، ثم غادرت البيت.

قال خولي بن يزيد: «وإذ خرجت إلى الدار وراءها رأيت نوراً مثل عمود يمتد من السماء إلى الإجانة حيث الرأس، وحولها طيور بيض ترفرف وتصدح بأصوات تشبه الأنين والبكاء».

قال الراوي: «ولما قتل الحسين بن علي جيء برؤوس من قُتل معه من أهل بيته وشيعته وأنصاره إلى عبيد الله بن زياد. فجاءت قبيلة كندة بثلاثة عشر رأساً، وصاحبهم قيس بن الأشعث. وجاءت قبيلة هوازن بعشرين رأساً، وصاحبهم شمر بن ذي الجوشن. وجاءت تميم بسبعة عشر رأساً، وجاء بنو أسد بستة أرؤس. وجاءت مذحِجْ بسبعة أرؤس. وجاء سائر الجيش بسبعة أرؤس، فذلك سبعون رأساً».

قال الراوي المعاصر: وعبر الأزمنة ستواصل تلك الروح البدائية، ذات النزوع الطوطمي، المضمّخ بالقداسة وشيم الثأر والجنون الدوري، رحلتَها الجحيمية في دروب التدمير الذاتي. دروب الحنين والوله لامرأة عُشِقت في عصر غابر، رائحتها ماتزال في خلايا الجسد وكريات الدم، وجيناتها ستورّث عبر الأجيال.

جينات شهوة القتل والموت، ستُسمّى حسب الفصول والتقاويم بأسماء مستعارة. فهي في الحكاية شهرزاد. وفي شبق السلطة والحرب زنوبيا أو شجرة الدرّ أو ست الملك. وفي الشعر والأدب ولّادة أو ليلى العامرية أو الخنساء. وفي التصوّف رابعة العدوية. وفي الحب والغيرة والأنانية الخيزران أو عائشة أو العبّاسة. ولعلّ شجرة الدر أو زنوبيا أو كليوباترة سيمثلن ذروة الحنين عبر تموجات الزمن، والميراث السلالي. هؤلاء النسوة اللامعات في المكر، المستترات خلف حجاب الحب والأمومة توقاً إلى السلطة والمجد، سيلعبن أدواراً باهرة وهنّ في دوائر الظلّ، وهنّ يتقمصْنَ جسد الرجل في الحرب، أو ينسجْنَ المؤامرات من وراء الستار.

فحين وقف أبو عبد الله الصغير المهزوم، وهو آخر ملوك غرناطة، بعد أن سلّم مملكته للإسبان، على مشارف جبل الريحان ليلقي نظرته الأخيرة على المدينة الحزينة، وهو غاصّ بالدمع، تقدمت منه أمه عائشة، صارخة من قلب مجروح، طاعنة كبرياءه الذليل:

«إبكِ مثل النساء مُلكاً مُضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال».

كان آخر الملوك في الزمن الأندلسي. الابن الذي سينقسم وينشقّ خارجاً من شهوة الأب إلى شهوة السلطة حين سيعلن الحرب على أبيه، قاطعاً الحبل السرّي للرحم الحميم بسيفه البرّاق. السيف الذي سيشطر غرناطة الصغيرة إلى غرناطتين. غرناطة، آخر ضريح أندلسي، سيقسمها أبو عبد الله إلى مملكتين، وستكون البيازين: الحيّ أو الحارة الغربية موئلاً للملك الصغير، ورحماً له مع أمه الغيور، الحقود، الأنانية، المستبدة. الأم التي ألّبتْهُ على الأب ليكون عدواً له، ونصيراً للإسبان في آخر احتفال تراجيدي للسقوط المدوّي لغرناطة، الحلم، والكابوس اللذين عبروهما خلال سبعمائة وثمانين عاماً داخل نفقٍ من الزهو والفتوّة والأمجاد الزائفة عبر شهوة الغزو وغريزة السلطة والموت والانشقاق.

الضريح الأندلسي

قال الراوي التاريخي: وفي العام 1483 ميلادية، كان سلطان غرناطة مولاي أبو الحسن النصري، وكان شيخاً طاعناً في السن، لكنه كان محارباً، قوي العزيمة، طموحاً، ذا بأس وشدة عُرفتا عن سلالته بني الأحمر. الأسرة التي قارعت الإسبان، وأسست دولتها في غرناطة بعد أفول شمس دولة الموحّدين.

كان أبو الحسن زوجاً لامرأتين إحداهن عربية، والأخرى إسبانية. العربية اسمها ستي عائشة وتلقّب بالحرّة، أما الإسبانية، المتحدرة من أصل نبيل، واسمها الأصلي إيزابيل دوسوليس، فقد سمّيت بثريا بعد إسلامها. كانت صبيّة فتيّة، باهرة الجمال، لعوباً، مدلّلة، ولها حظوتها في عين السلطان، وقد ولدت لأبي الحسن عدداً من الأبناء. أما عائشة فكانت أمّاً لأبي عبد الله أكبر الأبناء في أسرة الملك. وكما يحدث في الواقع والحكايات وعبر العصور بين الضرائر وحريم الملوك والأمراء والسلاطين، حين تحتقن النفوس بالغيرة والحسد، وتشبّ نيران المكر والمكائد، وتضطرم القلوب برغائب السيطرة والأنانية، فقد استعر الخلاف بين المرأتين حول ولاية عهد المملكة لابني كل منهما. ومع الزمن، عبر الوشايات والنميمة وتواتر الكراهية والأحقاد، تحوّل الخلاف إلى صراع خفي بين المرأتين ما لبث أن برز إلى العلن من خلال انحياز الأنصار والمؤيدين من الأهالي، فانشقوا إلى معسكرين.

وفي ربيع العام نفسه بينما الملك أبو الحسن منهمك بالهجوم على حصن «الحامة» القائم على حدود غرناطة، جاءته الأخبار والرسل باستشراء الصراع في مملكته بعد أن تحوّل إلى انشقاق مسلّح يهدد بضياع المملكة، وعلى رأس هذا الانشقاق ابنه أبو عبد الله الصغير وأمه عائشة الحرّة. وهكذا اضُطر السلطان إلى فك الحصار عن الحصن والعودة إلى غرناطة لحسم الخلاف، ومواجهة

ابنه وزوجته حيث أسرهما وأمر بسجنهما، منحازاً بذلك إلى معسكر ثريا وأنصارها.

قال الراوي: وكان أن عاد أبو الحسن لمواصلة حصار الحصن الإسباني، وخلال غيابه استطاعت زوجته عائشة، بمكرها وحيلتها ورشوة الحرّاس، الخروج وابنها من السجن.

وبتحريض من الأم حشد أبو عبد الله الابن أنصاره ومؤيديه معلناً العصيان والثورة على أبيه، وحين عاد الملك من الحرب والحصار منعه ابنه المتمرّد من دخول غرناطة بقوة السلاح. لجأ السلطان أبو الحسن إلى حاكم سلطنة المريّة، حيث دعمه حاكمها ودخل غرناطة عنوة بعد أن دُحِر أبو عبد الله مع عسكره، وانسحب إلى حيّ البيازين، وهكذا بدأت بين الأب والابن معارك طويلة وقاسية حول السلطة والملك، انحاز خلالها أبو عبد الله للإسبان وبمساعدتهم زرع الخراب والدمار في المناطق الخاضعة لسلطة أبيه.

يقول الراوي المعاصر: وداخل قانون الاحتمالات الوراثية ستنتقل تلك الجينات، كما غبار الطلع العابر للعصور والأمكنة، عبر جهات الأرض في المشرق والمغرب في النسيج والخلايا والأعصاب وهيجانات الدماغ.

هذا القانون ربما بدا مجازياً، أقرب ما يكون إلى التخييل الروائي أو المزاج الذاتي المناقض للعلم الأجتماعي أو النفسي أو الأنتروبولوجي.

غير أن طرح السؤال التالي: لماذا تتجلى حالات السلطة وشهوة الحكم في القرن الثاني للهجرة مماثلة أو مشابهة لحالاتها في القرن العشرين العربي؟ يبدّد بعض الغموض وغيوم الالتباس.

في سياق هذه القصة الروائية، الغريبة في صياغتها الأسلوبية، أجازف بدخول منطقة خطرة وملغومة على مدى المستقبل، حين

أستند بتوجّس لا يخلو من الشك إلى ما يمكن تسميته بقانون الاحتمالات الوراثي ـ الجمعي. لعل هذا يذكرني مجازاً برمي الشصّ في المياه العميقة اختباراً لوجود السمك في زمن الصيد حيث سترشدني خبرات الأزمنة، والتأمل التجريبي إلى مواقع أسراب السمك ومواطن توالدها ورعيها ومن ثم وقوعها في الشصّ، كعهدها في أزمنة مضت، وهي تواصل تاريخها الموروث. وحين سأسأل إن كان القانون البيولوجي والوراثي يتقاطع بين السمك والإنسان، أقع في الحيرة والشك.

لعل الخطير والقريب من حافة الجنون يكمن في هذا العجز من الخروج من جاذبية الجينات الوراثية. من البؤس التاريخي والدموي باتجاه الأعلى وارتكاب الجريمة التي لابدّ منها وهي: قتل الأب. الوحش المسيطر في مجرى الدم. وريث الآلهة على الأرض. هذا الحاكم بأمر الله لا بأمر البشر.

وصية أبو جعفر المنصور لابنه المهدي وحادثة مقتل أبو مسلم الخراساني

قال الراوي التاريخي: «وكتب الخليفة أبو جعفر المنصور في وصيته لابنه المهدي: أوصيك بالسلطان يا بني فهو حبل الله المتين وعروته الوثقى، ودين الله القيّم، فاحفظه وحصِّنهُ وذُبَّ عنه وأوقع بالملحدين فيه، واقمعْ المارقين منه، واقتلِ الخارجين عليه بالعقاب والتمثيل والتنكيل. يا بني إني جمعتُ لك من الأموال ما لم يجمعهُ خليفة قبلي، وجمعتُ لك من الموالي ما لم يجمعْهُ خليفة قبلي، وبنيت لك قصوراً ومدينة لم يكن في الإسلام مثلها. أوصيك بالمال والمُلك في الغداة والعشيّة فلازمهما ولا تفترقان».

قال الراوي: «ولما انتهى إلى المهدي موت أبيه المنصور تولّى الخلافة، ثم فتح أبواب الخزائن فإذا بأَزَجٍ (رواق طويل واسع) فيه

جماعة من قتلى الطالبيين (أحفاد علي بن أبي طالب وأولاد عمّ المنصور ممن خرجوا عليه إبّان خلافته)، وفي آذانهم رُقاعٌ فيها أنسابهم، وبينهم أطفال ورجال شباب ومشايخ بأعداد كثيرة، فلما رأى المهدي ذلك المشهد ارتاع فحفر لهم خفية حفرة كبيرة دفنهم فيها وبنى فوقها دكاناً».

قال الراوي الطبري: «وكان أبو مسلم الخراساني داعية العباسيين الأول في خراسان بعد مطاردته لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وقتله في مصر.

وخلال دعوة أبي مسلم للعباسيين وبني هاشم في بلاد خراسان، قتَل في حروبه من أجل الدعوة أكثر من ستمائة ألف قتيل.

ولما دعاه الخليفة المنصور، قبل وفاته، بعد أن عزم على قتله، عاتبه على طمعه بالخلافة وكرهه للخليفة وازدرائه له في مجالسه. فقال أبو مسلم: لقد أوقع الواشون بيننا. ألمِثلي يقال هذا بعد بلائي من أجلكم؟ فقال المنصور: يا ابن الخَبيثة والله لو كانت أَمَةٌ مكانك لما عمِلتْ ما عملْتَ في دولتنا. لقد ارتقيتَ ـ لا أُمّ لك ـ مرتقىً صعباً. فأخذ أبو مسلم يد أبي جعفر وراح يعركها ويقبّلها معتذراً عما بدر منه. وصفّق الخليفة بيديه فخرج الحرّاس من مكمنهم الذي أعدّه المنصور قبل قدوم أبي مسلم، فضربه أحدهم فقطع رجله، والمنصور يصيح بالرجال: اضربوه. قطع الله أياديكم.

وصرخ أبو مسلم لدى أول ضربة أصابته: يا أمير المؤمنين استبقني لعدوّكَ. فردّ عليه المنصور: لا أبقاني الله إذا ما أبقيتك. وأيُّ عدو لي أعدى منك!

وأجهز الحراس عليه حتى قتلوه.

ودخل على الخليفة اسماعيل بن علي، وهو من خاصة الخليفة وقرابته وواليه على الكوفة، فقال: يا أمير المؤمنين إنني رأيت في ليلتي هذه كأنك ذبحتَ كبشاً وأنني وطئته برجلي. فقال الخليفة:

نامت عينك يا أبا الحسن. قمْ فقد صدقت رؤياك. لقد قتلَ الله الفاسق.

وقام اسماعيل فوطئ جثة أبي مسلم المطروحة على البساط».

حلم

قال الراوي المعاصر: ورأيت فيما يرى النائم أن روحي غادرت جسدي خارجة من تلك الممالك والصحارى والبلدان (في ذلك الزمن كنت أهجس بالهجرة والرحيل إلى جزيرة بعيدة تشبه جزيرة حي بن يقظان وفي رأسي سؤال سأطرحه على صديقي حي الذي اختار العزلة منفى وملاذاً: هل الوصول إلى الله عن طريق التأمل والكشف والاعتزال يغسل تاريخ الدم والشهوات؟ وهل التسبيح والتمجيد لمصادر النور والخلق الأول والفيض الأعلى كافية لقتل الوحش الكامن في بلازما الدم)، وكان أن تحوّل جسدي إلى ما يشبه الطيف، وكانت الروح دليلي وقرينتي. وداخلني شعور إنسان ذليل ومنفي وبلا سلاح. عارٍ بلا لباس أو عتاد، كما خلقتني أمي في المهد. وحُمِلت وقرينتي عبر فضاء محمّل بريح غبارية ملوّنة. زرقاء تارة وحمراء تارة أخرى، لكنها نفّاذة يشبه غبارها السديم الذرّي الصاعد من أعماقٍ كالجحيم. غبار سامّ يميت الشجر والطير والحيوان ويجرثم الإنسان. وسمعت صرخة دوّت بها الأرض: أبعدوا عنّا هذا السمّ المتلوّي في الريح.

وكنت أصعد على أجنحة الريح خفيفاً ورشيقاً عبر فضاءات غريبة لا أعرفها. وجاءتني أصوات هي أقرب إلى الصدى: إلى أين ولماذا هذا الهجيج والهروب؟ وخيّل إلي، وأنا عبر طيّات الريح، أنني لست وحيداً غير أنني لا أرى الآخرين سوى كأطياف أو مرتسمات تشبه الغيوم فوق أفق البحر. بدت مزيجاً من طيور وأشجار وأسماك ووعول وأرانب ودببة، كلها بدت لي فارّة

ومذعورة من شيء غامض يطاردها. كانت الأطياف تظهر وتختفي على صفحة السماء حائلة اللون: أزرق ـ رمادي ـ برتقالي. بلون الرمل حيناً.

وخفق في الأعماق والفضاء صدى صوت لعله ندّاهة الروح: لمَ لا نجم في السماء يضيء؟ لماذا لم يجِنْ وقت الزرع؟ وهل الشتاء كان جافّاً في هذه الأوقات؟ ولمَ لا أسماك في البحر؟ ألأنّ الديناميت قتل بيوض وفراخ السمك؟ وعبر انتقال مباغت داخل الحلم رأيت أبي مضمّداً بعصابة بيضاء يرشح منها الدم. وسألته روحي التائهة: لم أنت ما عدتَ بيننا في بيتنا الريفي القديم المطلي بالحوّار الأبيض؟ وقال بأن أمك من نسل إبليس وتكرهني. وعانقني بشغفٍ تاركاً على جسدي الطيفي بقعة من دمه ثم اختفى طيفه في سديم الظلمة. ومن صدع في جدار الحلم رأينا، روحي وأنا، جبالاً من الموج قادمة من أفق البحر لكأن البحر سيطوف ليكتسح الأراضي الزراعية الخضراء والغابات والمدن المُشادة من الصفيح والقشّ والطوب. ومن السماء هوَتْ شهب على شكل طيور وأطفال ورؤوس مقطوعة. وقرأنا عبارة غريبة بلون الأرجوان كأنما خطّها البرق: هم ليسوا في الزمن. أو ليس لهم زمن. وعلى حوافّ الغابة التي نتجه نحوها، والتي انبثقت بغتة من جرح المنام، رأيت أمي تقودني مع أخي عبر أراضٍ سبخة مغطاة بالطحالب والرخويات. وبدت لي مسرعة، هلِعة من شيء غامض يحدث خلفنا. وصاحت بعبارة غامضة وملتبسة: هلمُّوا قبل أن يفيض الماء!

ونحن نعبر المخاضة امّحت أمّي عن شاشة الحلم، وغاب أخي في ظلمة ثقب سماوي فامّحى هو الآخر. ورأيت طيفي الروحي الشبيه بطائر يصعد عبر عمود منوّر من حبال وألياف شجر وأشنّيات بحرية، وكان في داخلي سؤال مكتوم: كيف تتحول هذه الحبال والألياف إلى ما يشبه النيونات المضيئة وأنا أتسلقها نحو الأعلى؟

وبانعطاف سريالي غريب تحوّل المشهد، فإذا بي فوق أرض عشبها كالياقوت والمرجان. أرض سحرية، غريبة (ذكّرتني بعد اليقظة بجزيرة حي بن يقظان التي أهجس بالرحيل إليها)، ألوان فضائها وجنباتها تشبه قوس قزح ولمعان رمال مياه البحر تحت ضوء الشمس. وخيّل إلي أنني أعود إلى مهاد طفولتي القديمة التي ضاعت مني. الطفولة التي سرقها الزمن وموت أبي. وباغتني رجل غريب خرج فجأة من أفق المروج الياقوتية، وقال: ادخل إلى القبة البيضاء هناك!

وعلى بعد أمتار فوق تلة خضراء لمحت خيمة تشبه فسطاط أمير. خيمة عالية مزركشة بالأبيض والأخضر والأرجواني. وصعدت أدراجاً معشبة كأنما أطير فوقها. وفي صدر الفسطاط كان يجلس على كرسي كالعرش رجل مهيب بعمامة بيضاء ولحية تتدلى حتى الصدر، يرتدي قطيفة زرقاء، وبيده مسبحة من اللؤلؤ والكهرمان. ولوهلة خيّل لي أنه أبي ووددتُ أن أسأله عن الضّماد الدامي. لكن الرجل الغريب الذي يواكبني طلب مني الركوع وتقبيل يد الإمام، غير أن الرجل الشبيه بأبي رفع كفّه علامة الرفض فبقيت واقفاً. وسألني بهدوء ووقار سؤالاً مفاجئاً حول تجديفي على الإمام الجليل قبل النوم فقلت وأنا هلع من هيبته بأن الأمر حدث منذ أزمنة سحيقة ماعدت أتذكرها. وفي تلك الأزمنة كنت خائفاً من الموت الذي غرسوه في أعماقي بأن الله ينتقم من الأطفال غير المؤمنين ويرسلهم إلى جهنم ليتعذبوا هناك في مراجل الجحيم إلى الأبد. وفي فجر وعيي بدأت ألعب لعبة التجديف على الله لاختبار وجوده وقدرته على إماتتي، وحين أستيقظ كنت أرى نفسي مازلت حيّاً لم يُمِتْني الله. وقال الرجل المهيب بأن الله يحبّ الناس جميعاً لأنهم أطفاله. وسألته عن الحكمة في موت الأطفال والناس الأنقياء، وبقاء الأشرار على سطح الأرض، وحدّثني بغموض عن سرّ حكمة الله في خلقه، وما وراء الموت من حياة أخرى، والثواب والعقاب.

وقلت بأنني أخاف الظلمة التي جئت منها ولا أرغب في العودة إليها ثانية، وأشار إلى روحي التائهة عبر أثير العالم والجسد الفاني، وأن هذه الروح ليست شرّيرة لكن الجسد الشهواني يقود إلى الهلاك. الروح بريئة ونقيّة إنما جسدك الملعون هو المنشقّ والخارج على الله. ورغبت القول: لو أتحوّل إلى حجر أو شجرة أو طير أو سمكة فلا أعود إلى ديار قومي السفّاحين الذين هربت منهم. لكني كنت خائفاً من حضوره الجليل ومهابته، وشعرت بأنني سأموت حين سأستدير عنه. وسمعت وأنا داخل الفسطاط ما يشبه دويّ الرعد أو الزلزال، ثم أضيء الكون ببرق يخطف البصر، وارتفعت الخيمة نحو الأعالي متلاشية عبر السديم السماوي في اللحظة التي قُذفتُ بها إلى الأرض مرتطماً بأرض غرفة النوم.

حكاية هارون الرشيد والبرامكة
وصهره جعفر زوج العبّاسة

قال الراوي التاريخي: وكان من أسباب هلاك جعفر البرمكي وأهله أن الخليفة الرشيد كان يحبّ جعفر بن يحيى البرمكي ويحضره في مجلسه هو وأخته العبّاسة بنت المهدي. فكان يحضرهما إذا ما جلس للشرب واحتساء الراح. وقال ذات ليلة لجعفر: أزوجكها ليحلّ لك النظر إليها إذا أحضرتها مجلسي. وطلب من جعفر ألّا يمسّها في المجلس، ولا يكون منه شيء مما يكون للرجل إلى زوجته. وزوّجها منه، فكان يحضرهما معاً في مجلس لهوه وشرابه، ثم يقوم بعد انقضاء المجلس ويتركهما فيثملان من الشراب، وهما شابّان، فيقوم جعفر إلى العبّاسة فيجامعها. وحدث أن حملت العبّاسة فولدت غلاماً في السرّ وخافت على نفسها من أخيها الخليفة إن هو علِمَ بالأمر، فوجّهت المولود مع حواضن له من مماليكها إلى مكة. ولم يزلِ الأمر مستوراً عن هارون حتى وقع بين عبّاسة وبعض جواريها شرّ فانتهى أمرها وأمر الصبي بالوشاية إلى الخليفة حيث أخبرته الجارية بمكان الولد. فلما حجّ هارون تلك الحجة أرسل إلى الموضع الذي أخبرته الجارية عن وجود الصبي فيه. وأمر هارون أن يؤتى بالصبي ومن معه من الحواضن، ونازعته نفسه أن يقتل الصبي لكنه كفّ عن ذلك.

قال الراوي: ولما عاد الرشيد من الحجّ كان موتوراً وغاضباً، فأرسل خادمه وسيّافه «مسرور» وطلب منه أن يأتيه برأس جعفر

فأتاه برأسه. وأمر الرشيد أن توجّه جثة جعفر إلى مدينة السلام (بغداد)، وأن ينصب رأسه على الجسر الأوسط. وأمر الخليفة بالنداء إلى جميع البرامكة ألاّ أمان لمن آواهم سوى محمد بن خالد البرمكي وولده وأهله.

وأمر الرشيد بحبس الفضل بن يحيى البرمكي في ناحية من قصور الرشيد، وحُبس يحيى بن خالد البرمكي في منزله، ولم يفلت منهم أحد. وقبض على ما وُجد لهم من مال وضياع ومتاع. وأمر العسكر ألاّ يخرج منهم خارج إلى مدينة السلام.

قال الراوي: ولم يزل جعفر مصلوباً حتى أراد الرشيد الخروج إلى خراسان، وفي طريقه عبر بالجثة فقال الخليفة يجب أن تُحرق، وجمع العسكر شوكاً وحطباً وأحرقوها. ولما بلغ الخبر يحيى بن خالد عن مقتل ابنه قال: كذلك يُقتل ابنه. وقيل له: خربت ديارك. فقال: كذلك تُخرّب دورهم بأيديهم.

تخاطر النبوءات

قال الراوي المعاصر: هل كان نوعاً من التخاطر أو التقاطع أن تلتقي نبوءة علي بن أبي طالب بعد مقتل الخليفة عثمان، مع نبوءة يحيى بن خالد البرمكي حول ما سيجري من صراع وحرب الأخوين بعد موت أبيهما الرشيد؟ أم هو تاريخ الثارات الدموية يواصل مجراه كالنهر منحدراً نحو مصبّات الموت؟ أم أن من يزرع الرياح لابدّ أن يحصد العواصف في مواسم الحصاد؟ أم أن ذلك الهيجان الوحشي كان بفعل تأثير الجينات الوراثية المخصبة داخل الأسرة والقبيلة والمملكة الواحدة (وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة وفتكاً) عبر العصور قديمها وحديثها؟

فما شهدناه من صراع الإبن وأبيه في الأندلس سنشهد له مثيلاً أكثر عنفاً في صراع الأخوين: الأمين والمأمون، على المُلك.

عبر تأمل مقارن، وفي سياق قانون الاحتمالات، عبر وقائع التاريخ، تبدو غريزة السلطة أقوى وأشدّ اضطراماً من الغرائز الأخرى كالجنس والجوع والبقاء، بل لعلّها في العمق النفسي والفلسفي جماع هذه الغرائز التي تنضوي تحت عباءتها. أهي هنا نوع من صراع وجود وهي تتجلى في الحكم أو الأسرة أو الدين؟

فأن تكون سيّداً، مهيمناً، آمراً، ناهياً، فأنت تتماثل وتتماهى مع الله في القدرة والعظمة والرعب والجبروت. إنك تميت وتحيي متى شئت، ترزق من تشاء وتُفقر من تشاء، تشمل عبادك ومواليك باللطف والرحمة والمال والجاه والسطوة، وترمي ناقديك وخصومك في السجون والمنافي وساحات الإعدام. تفعل ذلك خارج منظومة القانون المدني أو القضاء العادل أو الضمير الحي الرادع.

فأية عظمة هذا التماهي السامي مع الخالق، القاطن في عمق السماوات السحيقة فوق الخليقة كلها!

الزهو والخُيلاء وجنون العظمة ترفعك على بساط الريح بعيداً عن البشر الفانين (كونك خالداً كالله في أبراجك)، نائياً عن المدينة والشارع والمنازل والمقاهي والحدائق والمطاعم وشواطئ البحار، محروماً من الأفراح والسعادة (سوى نشوة الهتاف والتمجيد باسمك العظيم) والصداقة والغناء والصيد والموسيقا والرقص والفنون الجميلة وقراءة الأدب. تُقذف بمشيئة السموّ ونقاء السلالة والانبهار البالوني للذات نحو صحراء العزلة والجدران الصمّاء وكتائب الحراس، والرعب من الموت غيلة.

هكذا، تواجه نفسك سجيناً، ومنفياً خارج العالم الحي، تعيش في عالم تمثيلي، متخيل، ومجازي. عالم التقارير والأخبار السرية ومعلومات البصّاصين وشباك المؤامرات والأعداء المتربصين. عالم الخطط المكتوبة والمرسومة على الورق في كون من الوهم والتوجس والهلوسة.

وفي مواسم الاحتفالات، حين تطلّ على البشر ـ الحشود من

شرفة قصرك لتلقي خطابك الموسمي، مطوّقاً بالحراس والموالي والبطانة، يتبدى الحشد في عينيك مموّهاً بلاملامح ولا علامات. تمَّحي الوجوه والعيون والقامات والأيدي والأنوف والأرجل حيث لاترى سوى عظمتك في مرايا الحشد، مراياك. لاتخطر في ذهنك الخلجات الداخلية ولا الأحزان. لا أثر للجوع أو الرعب أو الاحتجاج أو الكراهية المستبطنة في مملكة السعادة وجنة الله. على شاشة العينين والمرايا، كالطيف تبدو الكتلة الواحدة المتجانسة وهي تتموج وتصرخ رافعة مع أصوات التسبيح والديمومة كما لُقّنت واستُسِرّ لها قبل أن تُساق إلى ساحة الزحف المقدس.

بالروح بالدم أيّها المفدّى إنليل، مبارك أنت يا سيّد العالم. أيها الخالد القادم من نسل الآلهة. يا من توّجك القدير بالنعمة الأزلية. يامن قسمت العالم إلى سماء وماء زمن الغمر. كما في الأساطير القديمة والترنيمات العذبة لملوك الشرق الإلهيين في ممالك بابل وآشور ووادي النيل. إنليل أو مردوخ أو نبوخذ نصّر أو آمون. السيّد العظيم المتجدد والمتناسل عبر الأزمنة، والحشود ـ القطعان المنوّمة، والمُهانة، والراضخة.

جينات غبار الطلع المخصبة، يحملها الهواء الخفيف أو الإعصار في مساءات النعاس الأزرق وأوقات القيلولة، إبّان ارتخاء الجسد، وسكينة الروح، وهجرة العقل. هي ذي تنسلّ بهدوء لتستوطن الدم والأنسجة والخلايا والأرحام، عبر تلقيح شفاف، صامت، شبيه بزواج الآلهة السرّي على ضفاف البحيرات والأنهار والغابات والمراعي الخضراء.

وقائع ما جرى في حرب الأخوين:
الأمين والمأمون

قال الراوي التاريخي: «ولما ملك الأمين واعتلى عرش الخلافة، وجّه إلى جميع البلدان في طلب المُلْهين (المطربين والمغنين والمغنيات والراقصات والمهرّجين) وضمّهم إليه ثم أجرى لهم الأرزاق، ونافس الأمراء والوزراء والأعيان في ابتياع فَرْهِ (خِيرة) الدواب والخيول، واقتنى الوحوش والسِّباع والطير وغير ذلك.

ثم احتجب عن أخوته وأهل بيته وقوّاده واستخفّ بهم (كان الأمين فتىً في الثالثة والعشرين حين تولّى الخلافة) وقسم ما في بيوت الأموال من المال والجواهر على خصيانه وجلسائه وندمائه. وحُملَ إليه ما في مدينة الرقّة من الجواهر والخزائن والسلاح، وأمر ببناء مجالس وقصور واستراحات لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه. فكان له قصر الخلد، وقصر الخيزرانية، وبستان موسى، وقصر عبدويه، وقصر المُعلّى، وقصر كلواذي، وباب الأنبار، ونبارى، والهوب. كما أمر ببناء خمس حرّاقات (سفن) في دجلة، بُنِيَتْ على شكل الأسد والفيل والعقاب والأفعى والحصان، وأنفق عليها مالاً عظيماً.

قال الراوي: وفي سنة أربع وتسعين ومائة أمر الأمين بالدعاء لابنه موسى على المنابر بالإمرة (خليفة من بعده) وسمّاه الناطق بالحق.

وفي هذه السنة مكر الأخوان كل منهما بصاحبه، وظهر بينهما الفساد. وفي السنة الثانية أمر محمد الأمين بإسقاط ما كان ضُرب لأخيه عبد الله المأمون من الدنانير والدراهم الرباعية بخراسان. كما نهى الأمين عن الدعاء على المنابر للمأمون، وأمر بالدعاء له عليها، ثم من بعده لابنه موسى وهو يومئذ طفل صغير.

قال الراوي: وفي هذه السنة، لسبعِ ليالٍ خَلوْنَ من شعبان سنة خمس وتسعين ومائة، خرج علي بن عيسى بن ماهان قائد الأمين من بغداد لحرب المأمون المقيم في خراسان. وخرج الأمين يشيّعه وهو يوصيه: امنعْ جندك من العبث بالرعية، والغارة على أهل القرى، وقطع الشجر، وانتهاك النساء، وادفعْ للجند أرزاقهم، ولا تعاقبْ أخاً بأخيه، وضعْ عن أهل خراسان ربع الخراج، ولا تؤمّن أحداً رماك بسهم أو طعن في أصحابك برمح.

قال الراوي: وذُكر أن منجّمه أتاه فقال له: أصلح الله الأمير لو انتظرت بمسيرك صلاح القمر، فإن النحوس عليه عالية، والسعود عنه ساقطة، منصرفة. فقال الخليفة لغلام له اسمه سعيد: يا سعيد قل لصاحب المقدمة في الجيش أن يضرب طبول الحرب ويرفع الأعلام، فإنّا لاندري ما فساد القمر من صلاحه. فمن نازَلنا نازلناه، ومن حارَبنا وقاتَلنا لم يكن لنا إلا أن نروي السيف من دمه، فنحن لانعتَدّ بفساد القمر وقد وطّنا أنفسنا على صدق اللقاء ومناجزة الأعداء.

قال الراوي: وجاءت الأخبار بأن طاهر بن الحسين قائد عبد الله المأمون كان مقيماً بالرِّي يعرض عسكره ويجهّز آلة حربه لملاقاة عيسى بن ماهان قائد عسكر الأمين، ولما وصلت الأخبار من قوافل أهل خراسان إلى عيسى بن ماهان سخر من طاهر قائلاً: ما طاهر سوى شوكة من أغصاني أو شرارة من ناري وليس أهلاً لتولّي الجيوش وخوض الحروب. ثم التفت إلى أصحابه وقال: والله ما بينكم وبيني أن ينقصِف الشجر من الريح العاصف إلا أن يبلغه عبورنا عقبة همذان. فإن السِّخال لا تقوى على النّطاح، والثعالب لا

صبر لها على لقاء الأسد. فإن يُقِمْ طاهر بموضعه يكُنْ أوّل معرّض لظُباة السيوف وأسِنّة الرِّماح.

قال الراوي: واستمرت الحرب بين الأخوين زهاء ثلاث سنوات ونيّف. واشتد الأمر والحال على بغداد وأهلها فكان اللصوص والفسّاق والرعاع والسَّفلة والعيّارون يسلبون من قدروا عليه من الرجال والنساء والضعفاء حتى ضاقت بغداد بأهلها، وخرج من كان فيه قوّة منها بعد الغُرم الفادح والمضايقة الموجعة والخطر العظيم. وكان أن غَلتِ الأسعار وصار الناس في أشدّ الحصار، فيئِسوا من الفرَج. وانتشر المرض والوباء والموت في الطرق بعد حرق بغداد وهدم الدور والقصور من قبل عسكر المأمون. وبدَتِ الغلبة، بعد دخول طاهر بن الحسين إلى بغداد، تميل لصالح المأمون. فخلع أخاه الأمين من الخلافة. ولمّا علمَ التجار في الكرخ وأسواق المدينة أن ميزان الحرب مال لصالح المأمون تداعوا وقالوا نكشف أمرنا لطاهر ونُظهر له براءتنا من العون عليه. فاجتمعوا وكتبوا كتاباً أعلموه فيه بأنهم أهل السمع والطاعة والحبّ له لما عرفوه فيه من إيثار طاعة الله والعمل بالحق والأخذ على يد المُريب. وإننا نضع أموالنا وما نملك رهن قيادتك في سبيل نصرة خليفة المؤمنين عبد الله المأمون المؤيد بنصر الله، وحاشا أن يحاربك منّا أحد.

قال الراوي: ولما اشتد الحصار على الأمين في بغداد، وعلم قوّاده أن ليس لهم عدّة للحصار، وخافوا أن يظفر بهم طاهر بن الحسين دخلوا على الأمين وقالوا له: لقد آلت حالك وحالُنا إلى ما ترى، ولنا رأي نعرضه عليك لعل فيه الصواب والنجاة. قال: ماهو؟ قالوا: قد تفرّق عنك الناس وأحاط بك عدوّك من كل جانب. ولم يبقَ معك من خيلك سوى ألف فرس وجواد فنرى أن تختار ممن عرفناه وعرفته بمحبتك من الأبناء والمقرّبين والموثوقين سبعمائة رجل نحملهم على هذه الخيل، ونخرج ليلاً عبر باب من أبواب المدينة،

فإن الليل ساتر لأهله ومعين فنخرج حتى نلحق بالجزيرة والشام فتفرضَ الفروض وتجبي الخراج وتصير في مملكة واسعة وملك جديد، فيسارع إليك الناس وينقطع عن طلبك الجنود إلى أن يحدث ما يحدث في مكر الليل والنهار من أمور بمشيئة الله. فقال لهم: نِعْمَ ما رأيتم. واعتزم على ذلك.

قال الراوي: وبلغ الخبر والعزم على الهرب طاهراً قائد المأمون فأوعز إلى خاصة الأمين وذوي الرأي ممن حوله أن يثنوه عمّا اعتزم، وهدّدهم إن لم يمنعوه بحرق ضياعهم وسبي نسائهم ونهب أموالهم وتشريدهم في طول البلاد وعرضها. ودخل أولو الرأي ممن أشاروا عليه بالخروج، وبسطوا له عاقبة الهروب، ومعرفة طاهر بالخبر، وقالوا له بأن الأبواب قد سُدّت والحصار ضاق، وأنه إذا ما نوى الخروج فهم لا يأمنون الصعاليك والرعاع أن يأخذوه أسيراً أو يحتزّوا رأسه ليتقربوا به فيكون سبب أمانهم. وقال الأمين متأففاً ومكظوماً بعد أن استجاب لذوي الرأي وانثنى عن فكرة الهرب: آه. وأوّاه. حرب من الداخل وحرب من الخارج.

قال الراوي: ولمّا عرضوا عليه تسليم نفسه إلى طاهر قال: ويَحكُمْ أنا أكره هذا الطاهر. وروى لهم حلماً: إني رأيت في منامي كأنني قائم على حائط من آجُرٍّ شاهق في السماء عريض الأساس وثابت في الأرض. لم أرَ حائطاً يشبهه في الطول والعرض والثبات كأنه طود من الأطواد التي بنته ملوك الجان للنبي سليمان، وعليّ سوادي ومنطقتي وسيفي وقلنسوتي وخُفّي، ورأيت طاهراً في أصل ذلك الحائط يضرب ويهزّ أساساته حتى سقط وسقطتُ وطارت قلنسوتي عن رأسي وانكسر سيفي.

قال الراوي: ولما أُسر الأمين واقتيد إلى معسكر طاهر جهّزوا له بيتاً محروساً، وكان في البيت بساط ووسادتان وسراج، ولما مضت من الليل ساعة سُمِعت حركة حوافر الخيل ودُقّ الباب ففتح لهم أهل الدار فإذا برجل شبه عريان يلبس سروالاً ملطخاً، ملثّم بعمامة

وعلى كتفيه خرقة ممزقة وحوله الحرس والجند؛ فلما استقر في البيت حَسَر العمامة عن وجهه فإذا هو الأمين. وكان في البيت أحمد بن سلام صاحب المظالم في قصر الخليفة. قال أحمد: ولما رأيت وجهه ارتعشتُ واستعبرتُ واسترجعتُ بيني وبين نفسي غابر الأيام ومجد الزمان الذي دالت أيامُه وتحولت سنته. ولأن الأمين لم يعرفني من شدّة ما انتابه ورثاثة حاله سألني: أيُّهم أنت؟ فقلت: أنا مولاك يا سيدي. قال: وأي الموالي؟ قلت: أحمد بن سلام صاحب المظالم. قال: كنت أعرفك على غير هذه الحال. كنت تأتيني وأنا في مدينة الرقة وتلاطفني كثيراً. أنت لست مولاي بل أنت أخي ومني. ادْنُ مني وضمّني إليك فإنني أجدُ وحشة شديدة. قال أحمد: وبدا لي كطفل صغير مهلوع وهو يرتعش فضممته فإذا قلبه يخفق خفقاً يكاد يثب من ضلوعه. وقلت له: هوِّن عليك يا مولاي. قبّح الله وزراءك وبطانتك التي خانتك وغدرت بك في ساعات الضيق والشدّة. قال وهو يرتعد من الهلع: يا أحمد ما تراهم يصنعون بي. أتراهم يقتلونني أو يفون بالعهد والحفاظ على حياتي كما وعدوا؟ وقلت لأدخل الطمأنينة والسكينة إلى نفسه: بل يفون بالوعد يا مولاي.

وراح وهو يرتجف يضمّ الخرقة على نفسه ويشدّها ممسكاً بها يمنة ويسرة. قال أحمد: ونزعتُ مِبطنة كانت علي. وقلت: يا سيدي ألقِ هذه عليك. فبينما نحن كذلك إذ دُقّ الباب ودخل علينا رجل مدجج بسلاحه وفي عينيه الشرّ فإذا هو محمد بن حميد الطاهري من جند طاهر بن الحسين. وقلت في نفسي بعد أن خرج الطاهري: إن الأمين مقتول لامحالة.

وازداد خوف الأمين وهلعه فقال: يا أحمد لاتبتعد عني فأنا مستوحش وأتوجس الموت بعد مرأى هذا الرجل. فاقتربتُ منه وضممته بين ذراعي وأنا أهوّن عليه: قلْ لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

قال الراوي: ولما انتصف الليل سمِعتُ حركة الخيل فدخل الدار

قوم من العجم وسيوفهم مسلولة بأيديهم، فلما رآهم الأمين قام وقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. ذهبَتْ والله نفسي. وصرخ: أما من حيلة! أما من مغيث! أما من أحد من الأبناء! وأقام القوم على باب البيت وأحجموا عن الدخول، وراح بعضهم يقول لبعض: تقدّم. وهم يتدافعون. وقمتُ واحتميتُ بالحُصُرِ المدرجة في زاوية البيت، وقام الأمين فأخذ وسادة وضمّها إليه وهو يسترحمُ الرجال: ويحكُمْ إنني ابن عم رسول الله. أنا ابن هارون الرشيد وأخو المأمون. الله. الله. في دمي.

وتقدم منه مولى لطاهر يُدعى خمارويه فضربه بالسيف ضربة وقعت على مقدم رأسه، وحاول الأمين أخذ السيف من يده، وتقدمت جماعة منهم فنخسه أحدهم بالسيف في خاصرته. ثم ركبوا فوقه فذبحوه من قفاه، وأخذوا رأسه إلى طاهر وتركوا جثته. ولما كان وقت السّحَر جاؤوا إلى الجثة وأدرجوها في كيس وحملوها إلى معسكر طاهر.

قال الراوي: ولمّا أصبح الصبح نُصِبَ رأس الأمين على باب الأنبار، وخرج ما لايُحصى من أهل بغداد للنظر إلى رأس الأمين، الخليفة المخلوع.

وفي اليوم الثاني بعث طاهر برأس الأمين إلى أخيه المأمون مع البردة والقضيب والمصلى في إزار من سعف النخيل المبطن. ثم أُدخل الرأس على ترس إلى مجلس المأمون فلما رآه سجد وبكى».

هاجس الخروج والغروب الأخير

قال الراوي المعاصر: وفي ليلة ما، بعد طول تأمل في مجرى هذه الأحوال والإحساس بالضائقة والحصار والعجز، راودتني فكرة الخروج والمروق منهم. بعيداً نحو الغابة أو نحو الشواطئ المهجورة. صوب مكان ناءٍ وغامض، ساطع بالضوء وطيور الفضاءات والدروب المنسية. مكان أجهله عبر الأرض إنما أتلمّس ملامحه على سطح المرتسم التجريدي للوحة الوعي الظليلي. الحلم الطفولي الذي يتشكل على رأس ريشة طفل فوق الورق أو سطوح الرمل على حافّة بحر هادئ الموج مرّة وصاخباً آناً آخر في وقت العواصف. بريئاً وملوّثاً في آن. عارياً كما في مهد الولادة بعد الخروج من المشيمة، صارخاً باحتجاج ضد القدوم إلى العالم. أغْدو أو أطير مندهشاً دهشة حي بن يقظان في جزيرته حين رأى الغزالة وهي ترعى العشب، ثم تنام بغبطة وسكينة تحت الشمس، فصاح: آه! أمي.

الأم التي ستحنو عليه وتتعهده وتدفع الأذى عنه.

«ولم يكن في تلك الجزيرة شيء من السبّاع والوحوش المفترسة، فتربّى الطفل ونما واغتذى بلبن الظبية، إلى أن تمّ له حولان وتدرّج في المشي وأثغر (ظهرت أسنانه)، فكان يتبع تلك الظبية وهي ترفق به وترحمه وتحمله إلى مواضع فيها شجر مثمر، فكانت تطعمه مما تساقط من ثمراتها الحلوة النضيجة، وما كان منها صلب القشر كسرته له بطواحينها، ومتى عاد إلى رضاعة اللبن

أروته، ومتى ظمئ إلى الماء أوردته، ومتى ضحا تحت الشمس ظلّته، ومتى بَرَد أدفأته، وإذا ما حلّ الليل صرفته إلى مكانه الآمن وجلّلته بجسدها، وبريش كان في الصندوق الذي وُضِعَ فيه حين حمله اليمّ إلى الجزيرة.

ومازال الطفل مع الظبية على تلك الحال يحاكي أنغامها بصوته حتى لايكاد يفرّق بينهما، كما كان يحاكي ما يسمعه من أصوات الطير والحيوان حتى أَلِفَتْهُ وآخَتْهُ».

وفي تلك الأزمنة سألت نفسي، بعد حروبي الدونكيشوتية الخاسرة، وتلوّث روحي بوحول الدم، إن كان الأوان قد آن للخروج من خدائعي، وهل بالإمكان تعويض شيء من تلك الخسائر بوهم الخلاص الروحي والبراءة منهم؟

وسألني الآخر في الضفّة الثانية عن الجدوى من هذا الرحيل والهروب، وقلت، وأنا بين ظليل اليقظة والسهو، بأن الروح متعبة والسلاح انكسر، ونحن في وقت الغروب الأخير. وعَبَرتِ السماء طيور بيضاء راحلة في مواسم هجراتها.

وقال الآخر: أنت تتبع الطيور في المواسم إذن!

وأذكر أنني هجست أو أجبته بأن الطيور تعرف مساراتها في أزمنة البرد والدفء لاجئة إلى براري الأمان والحرية.

وسألني الآخر: أتحاول أن تنجو بنفسك بينما الآخرون في الجحيم؟

وسألته غاضباً وممروراً: ولكن ما الذي يفعله الآخرون في مواجهة هذا الجحيم؟ وأضمرت فكرة لم أبُحْ له بها فحواها: أن الحيوان الموثق يملأ الدنيا صراخاً واحتجاجاً حين يطول إيثاقُه وحجْره.

وما كنت قادراً، كإله مفترض في الديانات، على بداية التكوين

والتشكيل الصلصالي للزمان المخرّب، والعناصر الأولى التي فسدت وعمّت روائحها الجهات كلها.

وكما تحسّ الطيور بالعزوف عن فضائها الجغرافي حين يُلوّث، بحثاً عن فضاء آخر، كانت تداهمني في ذلك الزمن الروائحُ الكريهة من جغرافية المكان والزمن والناس الخانعين.

وفي ذلك الزمن تراءى لي أنني منقسم الخلايا، موزّع ومبعثر في الاتجاهات والميول. خلايا منشقّة ومتناثرة. خلايا منخرطة في حروب أهلية غابرة، مرّة مع الثوري الأول محمد بن عبد الله في بدر وأُحد والخندق، ومرّة مع الخوارج في النهروان، وأخرى مع الحسين في كربلاء. خلية مع علي بن محمد قائد الزنج في سواد البصرة، وأخرى مع القرامطة وجيش أبي طاهر الجنابي في اليمن والبحرين والإحساء. خلية مع الحسن الصبّاح في آلموت، وأخرى مع صلاح الدين في حطين. خلية مع عميروش وعبد الكريم الخطابّي في جبال الأطلس، وأخرى مع غيفارا في غابات بوليفيا والكونغو. خلية تقاتل مع ألليّندي المحاصر بوحشية ورصاص العسكر، وأخرى مع خالد أحمد زكي في أهوار العراق، وخلية في بيروت تواجه الاجتياح البربري للعبرانيين.

آخر الخلايا أو ما تبقى من نبضها الحي كان مدّخراً للشوارع العربية، وهي تتموّج في الخيال عبر حلم الأمل، عزلاء ومسلّحة صارخة: لا. لا. لن تمرّوا إلاّ على جثثنا.

وفي ذلك الزمن، زمن الحطام والرماد، وأنا مزمع على الرحيل إلى جزيرة حيّ، ما كنت متأكداً من قرار الانسحاب ولا راضياً في قرارة نفسي من جدواه. لم أكن محطّماً بقدر ما كنت مهمّشاً، مطوّقاً بقوة عمياء، حين جاءتني طلقة غادرة قرب بوابة الروح، انطلقت من كمين مسلّح وأنا أعزل على أبواب الغابة. وتراءت لي، عبر ضباب الغيبوبة والجرح، حياتي الضائعة. الحياة التي نُذِرت ثم نُثِرتْ في صحارى الوهم، رهاناً على جياد خاسرة وعرجاء في مضمار

سباق أخرق. أزمنة الحلم والأمل المُغتال: جناحاي اللذان كنت أطير بهما في فضاء العالم أيام كنت مأخوذاً بالزمن المضاء والبهاء الطلق. وبالبحار الزرقاء والشموس الساطعة.

السُّدى والتبدد والضياع.

الحماسة والصداقة وإيقاد النيران فوق القمم.

العدالة والحرية والرقص والموسيقا والحب.

النبالة والوفاء والصدق والتضحية والنزاهة.

شروق الشمس فوق أرض الظلمات.

صروح الأحلام العذبة التي هَوَتْ بميراث التسفيل والقوّة الشهوانية.

وأخيراً سيزيف والقمة المستحيلة، ثم العبث وقبض الريح. خلائط تاريخ، وتلوينات دم معتكر. أوشال صحارى بلاد الرمل والدم، كانت تثقلني وأنا أعبِّر مطهري نحو الجزيرة المعزولة في الطرف الأقصى من العالم، هاجساً في المجاز والرغبة الكامنة: أنا بريء من هذا الدم الملوّث وهذا الكابوس، وهذه الأرض الخراب. وعبر التباس مختلط وغرائبي عبرتني السيرة القديمة للطيب الذكر، دونكيشوت، صديقي النبيل الأخرق، المهزوم في معاركه العظيمة الملتَبَسة بالتهريج والحماقة، عبر رؤاه الرسولية لتغيير العالم وتقويم الاعوجاج الكوني، وذلك حين فقد صوابه (على ما يروي سرڤانتس خالِقُه) فاستبدت به فكرة هي أغرب ما يتخيله مجنون في هذه الدنيا: حيث رأى من اللائق والضروري، سواء لتألق مجده أو لخدمة وطنه، أن يصبح فارساً جوّالاً، يسعى في مناكب الأرض، ببرذونه وسلاحه، وراء المغامرات ليصلح الأخطاء، ويتعرّض للأخطار لينال بمجابهتها ذكرى لاتُمحى أبداً.

وآن استحضرتْهُ المخيلة سألته عن مدى القرابة بيننا وما يجمعنا. فقال: جنون الوهم والمغامرة وحسّ العدالة.

ـ وما الذي يفرّقنا؟ سألت صديقي. فقال: جنون وهمك العادل أضأل من قدرتك على المثابرة حتى النهاية. واستطرد: مطاردة الحلم لاتتوقف إلا بالموت، أما الانكسارات فهي محطّات ثانوية في الطريق إلى الهدف الأسمى.

وقلت: هذا في عصركم. عصر الفروسية والنبالة. الآن اختلف الأمر والناس والكون.

وقال بكبرياء التجربة والمعرفة: جوهر الحقيقة والعدالة واحد في العصور كلها. الخلل والعطب يا صاحبي في النفوس العاجزة عن تلبية الطموح. تلك النفوس الغارقة في مستنقع الدناءة وموت الهمّة.

وحين تحدثت معه حول عبثية الفروسية وخيول العصور التي كانت تجوب الصحارى برماحها وسيوفها مقتحمة حصون الأعداء، قال باعتداد: الرماح والسيوف رموز وأشكال تتبدل عبر الزمن. الروح الداخلية المشعّة هي التي تقتحم أعتى الحصون المنيعة. قد تنهزم أو تموت وأنت تواجه الأقوياء لكنك تبقى رمزاً وتاريخاً لايُنسى للزمن القادم.

بدا حوارنا حول التضحية مثالياً يدخل في مدار المطلق والخيالي، والأزمنة القديمة التي انقرضت.

تداعت داخل الوعي، كإشراقة، جلجلة المسيح وصلبه، واستشهاد الحسين في كربلاء، وموت أرنستو تشي غيفارا في غابات بوليفيا.

وتساءلت وأنا في التيه، عابراً، ومهزوماً باتجاه جزيرة حي: إن كان لموت هؤلاء الرموز من معنى؟ طافت في الرأس أسئلة لاتحصى وددت طرحها على صديقي دو لامنشا، لكنه بدا على عجلة من أمره. امتطى حصانه وتقلّد رمحه ثم غادرني متوارياً في الضباب.

مشهد معاصر لضريح جزائري

الغدر

«الخناجرُ تطعن في الظهر
وتنحرُ من خلف
أنت تذهب إلى الغابة هناك
وعيناكَ مغمضتان.

الأشجار ترفع قضبانَ سياجها المتراصّة
في وجه الوميضِ الأحمر نفسه.
ابحثْ عن العصفور
الذي يجعل النورَ
يتغلغل في الغابة
رحلةُ تجوالٍ بعيدة
يقودها بين الأشجار
ذلك الأكثرُ سطوعاً».

محمد ديب ـ الجزائر

مجزرة بن طلحة

قال الراوي الشاهد: «وفي ليلة الثاني والعشرين إلى الثالث والعشرين من أيلول 1997 ميلادية. دخل القتلة بلدة «بن طلحة»، وهي من بلدات «المِتيجة» في الضاحية الجنوبية لمدينة الجزائر، وقتلوا مائتي إنسان من أهلها البالغ عددهم أربعة آلاف نسمة.

وحين هجم القتلة على البلدة لم ينتشروا في أحيائها كلها، بل انتشروا في حيّين منها: هما حي «بودومي» وحيّ «جلّالي»، وذلك لبعد الحيّين عن ساحة البلدة وعزلتهما وسهولة الوصول إليهما من الحقول المجاورة.

كان عدد المهاجمين حوالى مئتي مسلح، تسللوا بعد العشاء إلى جوار بن طلحة دون أن ينتبه أحد لتسللهم.

يروي بعض الناجين من المجزرة أن المهاجمين يعرفون البلدة بمسالكها ومداخلها ومخارجها. لقد كمنوا بين الأعشاب في بساتين الليمون والبرتقال والمشمس الهندي (الإكّي دنيا). وفي الساعة المحدّدة للهجوم خرجوا من مكامنهم، وفاجؤوا الأهالي وهم نيام في بيوتهم، بعد أن لغّموا الأبواب الموصدة وفجّروها مستخدمين متفجرات يدوية صُنِعت محلياً. تناهت جلبة الهجوم إلى حيّ «الحرّاش» في مدينة الجزائر. ويرجّح الرواة من الناجين أن يكون الدرك والجنود والضباط في الثكنة الحصينة والقريبة من البلدة قد سمعوا الصراخ والعويل ودويّ الانفجارات، لكن أحداً من هؤلاء لم يبادر للنجدة. وشلّ الرعب والفزع بقية أحياء البلدة، فتحصنوا في منازلهم وأوصدوها سيما وأنهم عزّل من السلاح. ويزعم جنود الثكنة، في تسويغهم لعدم نجدة الأهالي، بأن الطرق المؤدية إلى الحيّين كانت ملغّمة.

والثابت أن القوات المسلحة في تلك الليلة وغيرها من الليالي كانت مهتمة بحماية نفسها وسلامتها.

حين دخل المهاجمون الدور والأحواش انتشروا في الحجرات والغرف وأخرجوا أثاثها، فقتلوا من لا يرجون توبتهم وصلاحهم من رجال وأولاد ونساء عجائز وحوامل بُقِرت بطونهن، أما النساء والصبايا الصالحات للسبي والمتعة فقد تبادلوهنَّ فيما بينهم وعلى رأسهم الأُمراء من القيادة. وبعد فراغهم من القتل وتعليق جثث الضحايا على الأشجار والأعمدة، حملوا الأسلاب والسبايا ثم ولّوا الأدبار تاركين البلدة تتوضأ بدماء قتلاها وأنين جرحاها».

وثائق حول السبي والمغانم

وثيقة رقم 1 من أمير الجماعة الإسلامية المسلحة:

«من أمير منطقة «السابقون» الجزائر ـ العاصمة «أبو عبد الله عيسى» إلى مجاهدي منطقة «السابقون»: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: بعد أن مَنّ الله علينا بسنة السبي، وحتى نكون على بيّنة من أمرنا، هذه بعض أحكامه التي أفاد بها أخواننا:

1 ـ الأمير وحده الذي يهدي السبيّة.

2 ـ لا يقبلها إلا من أهديت إليه وبإذن الأمير.

3 ـ لاتجرّد من الثياب أمام الأخوة.

4 ـ لايجوز النظر إليها بشهوة، ومن خاف على نفسه فعليه بغضّ بصره.

5 ـ لا تضرب من طرف الأخوة، بل من طرف من أُهديت إليه فعليه أن يفعل بها ما يشاء.

6 ـ إذا كانت سبيّة مع أمها ودخلتَ على أمها فلا يجوز أن تدخلَ على بنتها.

7 ـ إذا وطئها الأول فلا يجوز وطأها من الآخر إلا بعد أن تُستبرأ بحيضة ويجوز المداعبة مع الغزل.

8 ـ إذا كانت سبيّة وأختها فلا يجوز الجمع بينهما مع مجاهد واحد.

والله وليّ التوفيق وهو يهدي السبيل.

حرر يوم 5 جمادى الأولى 1418

وثيقة رقم 2 حول توزيع الغنائم بعد كل عملية:

«الذهب والأموال التي يتمّ الاستيلاء عليها تقسم إلى جزئين: القسم الأول يوزع بين قادة المجموعات المشاركة في العملية.

والقسم الثاني الذي يوزاي الخُمس هو حصة الأمير عنتر الزوابري ـ أبو طلحة».

وفي وصل التسليم للمغانم المؤرخ في 27 ربيع الثاني 1418 الموافق لـ 31 آب، أوت 1997 بلغ ما استلمه الزوابري: 16 سواراً ذهبياً. 56 سلسلة. 96 قطعة ذهب. 184 حلقة أذن. علبة فضة. 79 خاتماً.

كما قدر الوصل قيمة الأموال المرسلة إلى الزوابري بـ 30 مليون سنتيم، أي خمس ما استُولي عليه.

وبعد مجزرة بن طلجة استلم الزوابري مبلغ: 12.522.00 مليون دينار يشكل حسب الوثيقة خمس ما نُهبَ في بن طلحة.

قال الراوي المعاصر: وبدت الجينات الوراثية، عبر فضاءاتها من المشرق إلى المغرب، تواصل رحلتها على أجنحة غبار الطلع المخصب. تحملها الرياح والطيور المهاجرة وكسوفات الأزمنة.

وتراءت روح القبيلة المحمولة، كأنماط أوّلية في ثنايا التاريخ الجمعي، شبيه ڤيروس يستعصي على الاستئصال. وحين تساءلتُ بحيرة عن صمتهم، وهم تحت المهانة وعسف شيخ القبيلة والأمير، قال الرجل الآخر في الضفة الثانية: لقد أدمنوا ذلك بتواتر الزمن. واستطرد: منذ عبادة الخالق وظهور الأنبياء والخلفاء، أدمنوا الركوع والإيمان بالسيّد الأعظم. هُمْ بدونه أطفال بلا أب.

وسألته إن كانوا لم يبلغوا سن الرشد بعد!

فقال: مازالوا في مهد الطفولة وهم بحاجة لمن يرعاهم. السيّد الأعظم هو الأب الذي يرعى القطيع الضائع. وذكّرني صديقي الآخر بذكرى حلمي الماضي مع أمي وأخي ونحن في التيه والطوفان

والأراضي السبخة، كيف رأيت أبي المضمّد والميت، وكيف سألته: لماذا لاتعود إلينا في بيتنا القديم. وكيف أشير إلي نحو الخيمة البيضاء حيث الرجل المهيب، الشبيه بالرب وأبي، وجرى الحوار الغامض والغريب بيننا. وقال: لأنك يتيم فأنت تحتاج أباً. وآن سألته بضيق استنكاري: وهل نحن مجموعة أيتام نبحث عن آبائنا الضائعين؟ صمت وتلاشى في الضباب.

بخور كيماوي لضريح عراقي

قال الشاهد المعاصر: «وفي السادس عشر من آذار ـ مارس من العام 1988 الميلادي، قامت طائرات الحكومة العراقية بقصف مدينة «حلبجة» الكردية، وعدد سكانها سبعون ألف نسمة، بالأسلحة الكيماوية (غاز الخردل وغاز الأعصاب، وكيماويات أخرى سامة وقاتلة) مما أسفر عن سقوط آلاف الضحايا، أخذهم الموت على حين غرّة. أطفال أبرياء ونساء وشيوخ وشباب عزّل. قُتِلوا وشوِّهوا بوحشية استهدفت إبادة وتدمير أكثر من خمسمائة قرية ومدينة كردية. مئات من السيارات معزّزة بقوات عسكرية مسلحة انطلقت باتجاه القرى لتحاصرها، وتنقل سكانها قسراً إلى غياهب الصحراء العراقية في أقصى الجنوب والغرب لتدفنهم أحياء في مقابر جماعية.

أفراد قلائل نجوا من المذبحة، حيث آوتهم بعض العشائر العربية، وخبأتهم عن أعين الجلّادين. وهؤلاء عادوا فيما بعد إلى كردستان ليرووا ما حلّ بهم ورفاقهم وأهلهم في تلك الأيام السوداء، وسط ذهول العالم الذي تابع على شاشات التلفزيون قصص الدمار والقتل الجماعي للجنس البشري في أواخر القرن العشرين.

حلبجة، هيروشيما المصغّرة، كان ضحيتها خمسة آلاف قتيل، وآلاف المشوهين من الغازات السامّة والأسلحة الكيماوية».

شهادة

«في الصباح الباكر من يوم 25 آب ـ أغسطس 1988 صحَتْ الطفلة «عزيزة» ابنة الثماني سنوات على أصوات الطائرات العراقية وهي تحوّم فوق قرية (يكمالا) التي تعيش فيها مع عائلتها في شمال العراق، وبينما كانت تراقب الطائرات رأت القنابل وهي تتساقط، وبدلاً من أصوات الانفجارات الداوية رأت عزيزة سحباً من دخان أصغر تتشكل فوق القرية، وبعد ثوانٍ راح القرويون يتساقطون أمامها بعد أن استنشقوا رائحة الدخان العفنة.

وكان من بين الذين سقطوا صرعى أمامها أبواها وأخوها. كان الدم يتدفق من أفواههم وأنوفهم، بينما كانت أجسادهم تسودّ شيئاً فشيئاً، وحين حاولتْ الهروب رأت سكان القرية يتساقطون غبّ استنشاقهم لغاز الخردل وغاز السيانيد الخانق.

«عزيزة» واحدة من القلائل الذين نجوا من ذلك الهجوم الكيماوي على القرية، حيث استطاعت الهروب عبر الممرات الجبلية الوعرة باتجاه الحدود التركية. وحين وصلت إلى منطقة اللجوء كان جسمها الصغير قد تقيّح، كما كانت تعاني من نوبات سعال شديدة وفي حالة تقيّؤ مستمر ونزف داخلي وإسهال».

شهادة ـ رياح الموت

الدكتورة «كريستين كوسدن» الأستاذة في جامعة ليڤربول، والمتخصصة في علم الوراثة والجينات، قامت بزيارة حلبجة برفقة الصحافي والمنتج السينمائي «كوين روبرت» لدراسة آثار الأسلحة الكيماوية على السكان، بعد مرور عشر سنوات على المجزرة، وقامت بنشر أبحاثها في برنامج قدّمته القناة الرابعة في التلفزيون البريطاني، كما كتبت بحثاً نشرته جريدة «هيرالد تريبيون» تحت عنوان «حلبجة بعد عشر سنوات مازالت النفوس والأجسام

متسمّمة»، وذلك بتاريخ 1988/3/12 جاء فيها: «لقد استعمل الجيش العراقي كوكتيلاً من الكيماويات مثل غاز الخردل الذي يؤثر على الجلد والعيون والصدر، كما استخدم غازات أخرى تؤثر على جهاز الهضم مثل غاز السارين وتابون وف إكس VX.

لقد سقط أكثر من خمسة آلاف شخص كان المنتج السينمائي قد أنتج عنهم فيلماً في العام 1988 بعنوان (رياح الموت) تأثرتُ به جداً، كما كنتُ قلقة من تأثيرات هذا الكوكتيل على صحة السكان في المدى القصير والبعيد.

لقد اكتشفتُ أن الحالة مروّعة وخطيرة أكثر مما كنت أتصوّر. كان هناك عدد كبير من العميان وآخرون مصابون بسرطان الجلد. كما وجدتُ عدداً كبيراً من الأطفال يموتون من سرطان الدم والغدد اللمفاوية، واكتشفت أن الولادات التي تمّت بعد سنة واحدة على الحادثة تعاني من أمراض القلب والمرض الوراثي (شفة الأرنب). كما شاهدتُ التأثير النفسي المرضي على الناس، حتى أن البعض من هؤلاء حاول فعلاً إطلاق النار على نفسه.

إن سكان المدينة يُعانون من أمراض الجهاز التنفسي وأمراض العيون والأمراض العصبية والجلدية والوراثية، حتى أن المواد الكيماوية أثّرت على الجينات الموجودة في الخلايا».

نداء

«إنني أدعو الحكومة العراقية إلى الكفّ عن حرب الإبادة ضد الشعب الكردي، كما أدعو الحكومات والقوى السياسية في الوطن العربي والإسلامي للخروج عن صمتها، وممارسة الضغط على النظام العراقي لإيقاف المجازر.

إن أبناء الشعب الكردي، أحفاد نور الدين وصلاح الدين الأيوبي، وقفوا، منذ مئات السنوات، ومنذ أن جمعتهم راية الإسلام،

إلى جانب العرب، وقد نظّم الشعب الكردي المظاهرات الضخمة احتجاجاً على العدوان الثلاثي ضد مصر في العام 1956 ، كما نَظَم شعراؤه وأدباؤه بعض أجمل نتاجهم حول ثورة الجزائر. وقاتل مئات منهم في صفوف الثورة الفلسطينية.

إن هذا الشعب، وهو في محنته اليوم، يستحقّ من أخوانه العرب والمسلمين أن يرفعوا أصواتهم لحمايته من الإبادة، وهو أضعف الإيمان، حتى لا يسجّل التاريخ بأننا عَلِمْنا وشهَدْنا وسكَتْنا».

أحمد بن بللا

شهادة براءة

«أيّها الطفل الكردي المحترق بالغاز في قريته الصغيرة، على فراشه، أو في ساحة لعبه، هذه براءتي من دمك، أقدمها لك، معاهداً إياك ألّا أشرب نخب الأمجاد الوحشية لجيوش العصر الحجري، وألّا أمدّ يدي إلى واحد من أنظمة العصر الحجري.

أقدم لك هذه البراءة على استحياء. ينتابني شعور بالخجل منك، ويجلّلني شعور بالعار أمام الناس كوني أحمل هويّة الطيار نفسه الذي استبسل عليك، وليت الناس أراحوني من هذه الهويّة حتى تتوافر لي براءة حقيقية من دمك العزيز، أنا المفجوع بك، الباكي عليك في ظلمات ليلي الطويل.

في زمن حكم الذئاب البشرية الذي لم نعد نملك فيه سوى البكاء.

اقبلها مني أيُّها المغدور، فهي براءتي إليك من هويتي».

هادي العلوي

شهادة شعرية

كان أكراد آذار في هدأة المستحيل

الثيابُ ربيعية

والوجوهُ ربيعية

والمغنّي قتيل.

الغيومُ التي هطلت خردلاً أسود في الرئات

الغيومُ التي ربطت عقدة الموت حول الصباح الجميل

الغيومُ التي خثّرت دم أطفالنا

والغيومُ التي خمّرت خبزَ إبليس

في حدقات الأصيل

هل تُراها ستعبرُ من غيضة السرو

حتى تَمسَّ النخيل؟

كان أكراد آذار في هدأة المستحيل.

سعدي يوسف

رياح الرحيل

قال الراوي المعاصر: وكان أن تملكني شعور باللاجدوى من صلاح أمرنا. وأننا مازلنا فريسة للزمن القبلي وصيحات طائر الثأر، لكأننا لم نغادر الصحارى والرايات الجاهلية.

وتساءلت إن كنّا غادرنا الكهف المسحور أم أننا مانزال ننسج الزمن بخيوط العنكبوت؟ وتراءى لي، إذ أزمعت الرحيل، عبر هذه البراري الفسيحة باتجاه جزيرة حي، أنني أخرج من رحم زمنهم، مطارداً ومنبوذاً كذئب، تلاحقني لعنة ندّاهة سحرتني.

كنت شبه منوّم، مأخوذاً بأشعة ما وراء الظلمات، وحكاية الطفولة التي استوطنت روحي عن جزيرة حي بن يقظان وأمه الغزالة.

جزيرة عذراء، شكّلها الحلم الطفولي، انفصلت ذات دهر عن أمها الشمس، وهوت في الطرف الأقصى والغامض، هناك في عالم ماوراء بحر الظلمات. هناك كان العالم الآخر النقيض، عالم ما قبل التلوّث، حيث الأصداء السحرية والرجع البدائي الأول داخل الغابة الخضراء. صدى صوت البحر وهو يداعب الرمل والحصى. عذوبة الليل المندّى بأصوات الطيور والوحوش الأليفة التي تؤاخي الإنسان. الروائح الصاعدة من بخار الأرض والأعشاب.

ها أنذا في بداية الهجس بالعبور، أكابد كي أخرج من دمي القديم، بعيداً عن روائح الدم والبلغم والجثث المنتنة والمدفونة على

دروب اليمن وخراسان وبغداد ودمشق وغرناطة والمغرب والكوفة. أعبر فوق أطلالي الدموية دونما ندم. تحملني أطياف ليست سحرية في أصلها التخييلي. أطياف منشقّة، صلبة إذ يستعاد زمانها المنتهك. أطياف مصاغة من غرانيت وصوّان ومواجهات الأعاصير والجائحات التي دمّرت بلداناً، ودفنت بشراً في قبور جماعية لاتزال آثارها عصية على الامّحاء. جائحات السجون والمعتقلات وساحات الإعدام لرجال ونساء كانوا بقوة الرعد وخصوبة المطر في أزمنة الجفاف والجدب، زمن كانت الصرخة في وجه الوحش تتساوى مع الطلقة في الرأس أو الصدر، حين كانت قبائل العرب تعبر هاويتها ومطهرها لتكون ما ينبغي أن تكون قبل الظهور اللوّياثاني المتوحش. هل كنت أنقذ نفسي وأنا أرتدي تلك الأطياف؟ أم أنني أتماثل مع عبد الرحمن الداخل الفارّ من المذبحة؟ وهل كان بإمكاني، أنا الواقع في الأسر والوهم المثالي، تشييد مملكة جديدة في جزيرة حي بن يقظان، جرّاء نزوع مستوهم، يرفض في الجوهر وقوة الروح رائحةَ الفساد والعطب؟

حين واجهني الرجل الآخر، المقيم على الضفة الأخرى من بحر الظلمات، وهو يعترض طريقي، سخر من رحلتي الدونكيشوتية التي قال عنها بأنها ذرائعية وهروبية. وسَمني بالرجل الهارب والفائض عن مجرى الزمن. وقال بأن هذا الرحيل هو التخلّي والحياد عمن هم في الضائقة الآن. ولأنه يعرف شيئاً عن سيرتي القديمة ومواجهاتي الغاضبة رفعها في وجهي ليثنيني عن الرحيل. وقلت بأن ذلك الزمن كان طفولياً وخادعاً ولامعنى له، وأنا الآن مزمع على الخروج من تلك المتاهة العمياء.

وتحدث بضيق وكرب عن الثمن الغالي الذي دُفع في المنافي والتشرد وتمزيق أواصر الأسرة والمرارات الداخلية، ذلك الميراث لابد أن يردعك عن الهروب والنجاة بروحك من وهج الحريق.

- لقد دفع الآخرون ما هو أغلى في السجون والمعتقلات

والمقابر وتحت سياط التعذيب. هذا كله كان ضريبة بالمجان. هدية للريح والزمن المنسي. وآن قال بأنها علامات كالنجوم الهادية في ليالي الظلمات، اندفعتْ من الأعماق صرخة مكبوتة خرجت من الكهف الداخلي: هم ليسوا مع أنفسهم في هذا الوقت كما ترى.

تحت الأطياف واستفزاز الآخر لمحت برقاً شقّ سماء الليل. قال البرق: هم الآن منشقّون على أنفسهم ومنشطرون ولا أمل.

كان هناك ليل بهيم يخيم. ليل يفصلنا بلا نجم. بدا حوارنا حادّاً وعدائياً وأنا على وشك العبور نحو الضفة الأخرى باتجاه الجزيرة.

العبارة التي قالها بشكل وداعي: لا جدوى من عبورك إلى هناك. لن تلقى أباك الضائع. صدِّقني!

هل أنا راحل لأبحث عن أبي المفقود؟ ذاك الذي مات منذ زمن طويل وطواه العدم؟ أم أنني خارج عليه ومفصول عنه، وأنا أتجه نحو مواطن الينابيع والسلام الروحي، بعيداً عن حروب القتل والدمار الذاتي؟

وبادَهْتُه وأنا على الحافة الفاصلة بيننا: إنني مسحور وأبحث عن غزالتي التي سترضعني حليبها النقي.

وهو يودّعني، هازئاً من رؤاي الطفولية، قال: هُمْ فيك ياصاحبي كما الدم في الأنسجة والهواء في الرئة والروح في الحركة. خلاياك مشبعة بجيناتهم وأبوك مقيم فيك.

قال الراوي: وإذ وصلت الجزيرة التقاني حي بن يقظان بالكثير من الترحاب والألفة والحب، وفاجأني بأنه كان ينتظر قدومي منذ زمن طويل.

وإذ بدأت بسرد حكايتي وأسراري، وتاريخهم المضمّخ بالدم والعار، وأنني مهاجر إلى جزيرته ناشداً الراحة والسكينة مع الرغبة

الملحة لاستكناه معرفته والاهتداء بها في ظلماتي، فاجأني بأنه ليس مفصولاً عن هذا السياق وهذا التاريخ العكر. وما أَنشده يدخل في فضاء المطلق والمستحيل، وفي هذه الجزيرة وما جاورها من الجزر، رغم عزلتها، من المآسي ما يمزق نياط القلب والروح.

كنا جالسين على أرض معشبة في ظل شجرة ظليلة تواجه البحر، حين بدأ بسرد حكاية غريبة عن الأخوين أبسال وسلامان اللذين تعرّف عليهما في جزيرة مجاورة بعد قدومه إلى جزيرته ولقائه بالغزالة التي ربّته وأرضعته بعد تيهه عبر اليمّ، وجنوح طوقه إلى الشاطئ. وقبل أن يروي حكاية الأخوين طرحت عليه سؤالاً عن سرِّ كمون وتناسل هذا العنف الوحشي في الإنسان، ولماذا يتفوّق هذا العنف على عالم الوحوش في الغابة؟

وبهدوء الحكيم المتصوف البادي في وجهه وعينيه قال: الوحش كامن في نفس الإنسان منذ الخليقة الأولى. وحين يمتلك القوة والسيطرة الغريزيتين، مزيحاً العقل الإلهي الأسمى، يهبط الوحش إلى ظلمة الغاب.

وقال حي: دعني أسرد لك قصة للعبرة، عن حالة تشبه حالتك وتتقاطع معها، وهي قصة أبسال وأخيه سلامان اللذين تعرّفت عليهما في جزيرة قريبة من هذه الجزيرة.

وراح يروي بأن أبسال كان أصغر الأخوين. عاش في كنف أخيه الأمير سلامان، وكان جميلاً كالوردة، وبهيّاً كالقمر. كما كان عاقلاً، متأدباً، عفيفاً، عالماً وشجاعاً لايخشى في الحق لومة لائم. وكان الأمير سلامان متزوجاً بينما أبسال عازباً يعيش مفصولاً عن أخيه في بيته الخاصّ. ولجمال أبسال اشتهته يوماً زوجة أخيه وعشقته، فطلبت من زوجها أن يأتي بأخيه ويعيش معهما ليعلّم أولادهما العلم والأدب والعقل، فاستحسن سلامان الرأي وقال لأخيه: إن امرأتي بمنزلة أمّك وأنت وحيد فتعال وانضمّ إلينا، فالأولاد بحاجة إلى علمك وأدبك. قبل أبسال راضياً. وخلال وجوده

في بيت أخيه أكرمته زوجة سلامان واحتفَتْ به. ولما اختلت به في غياب زوجها أظهرت له عشقها، فانقبض أبسال من الأمر ونَفَر رافضاً. ولما رأت الزوجة نفوره ورفضه قالت لزوجها، عبر مكيدة ومكر دبّرتهما في نفسها: لماذا لا تزوّج أخاك بأختي؟ وتمّ الأمر، فتزوج أبسال من أخت الزوجة. وفي ليلة الزفاف انفردت بأختها قائلة لها: اسمعي. أنا لم أزوّجك بأبسال ليكون لك وحدك بل لأشاركك فيه. وفي الليلة نفسها جاءت امرأة سلامان إلى سرير أبسال وراحت تعانقه وتضمّه إلى صدرها، وإذا هما في هذه الحال بغتة لاح برق في السماء فأبصر بضوئه وجه زوجة أخيه فوثب خارجاً من البيت. وفي اليوم التالي طلب من أخيه أن يصبح جندياً في جيش الأمير فولّاه أخوه قيادة الجيش.

ولسنوات طوال حارب أبسال الشجاعُ الأعداءَ، وفتح الكثير من البلدان، ثم عاد إلى وطنه مكلّلاً بالغار والنصر، معتقداً بعد تلك السنين أن زوجة أخيه نسيته، لكنها عاودت حبّها له، وشغفها به أكثر مما مضى، فتأبى عليها وعاد إلى ميادين الحرب ثانية، لكن امرأة سلامان حين يئست من حبها أوعزت إلى قادة جيوشه وأوغرت صدورهم بأن يخذلوه في الحرب، ويتآمروا عليه، فظفر به أعداؤه في إحدى المعارك وأثخنوه بالجراح فظلّ طريحاً في أرض المعركة أيّاماً حتى استطاع الزحف إلى أجمة ظليلة حيث صادفته غزالة بريّة فقدت رضيعها، فحَنَتْ عليه وأرضعته إلى أن انتعش وشفي من جراحه، ثم عاد إلى بلاد أخيه الأمير سلامان حيث روى له خذلان وخيانة قادة جيشه فعاقبهم سلامان بأن قطع رؤوسهم جميعاً. لكن الزوجة العاشقة ضغَنَت على أبسال فدسّت له السمّ بالتآمر مع الطبَّاخ في الطعام وقتلته، فاغتمّ سلامان واعتزل في صومعة منصرفاً عن المُلك والإمارة، وفي صومعته أطلعه الله على ما فعلت زوجته والطاعم والطبّاخ ففعل سلامان بهم ما فعلوه بأخيه.

صدمتني الحكاية الغريبة، المأساوية، وتساءلت سراً: إنني

هارب من عالم الغدر والقتل إلى عالم السكينة والسلام والنقاء، وها هي الجينات الدموية تتبعني حتى إلى جزيرة حي! قال الراوي: وحين سألت حي بن يقظان عن المغزى وأوجُهِ المشابهة بين حالتي وحالة أبسال راح يشرح لي بشطحات أثيرية غامضة وتحليل إشراقي بأن للحقيقة وجهين: مظهر وجوهر، أو اسم ومعنى، أو واقع ورمز. فالمظهر والإسم والواقع هو ما سمعت أو تصوّرت، أما الجوهر والمعنى والرمز فشيء آخر تدركه الذات العارفة، العازفة عن الدنيا العرضية وشهواتها. الذات المعزولة عما حولها من إغواءات الغريزة والجسدانية. الذات الموغلة في الفناء الروحي شوقاً للوصول إلى الذات المطلقة والكون الأسمى والحقيقة الجوهرية.

وإذ سألته عن المعنى والرمز في قصة أبسال وسلامان، قال: سلامان يا بني يمثّل النفس الناطقة، أما أبسال فهو العقل النظري، وامرأة سلامان ترمز إلى الجسد والطاقة الممتلئة بالشهوة والغضب والمكر. وعشقها لأبسال هو محاولتها تسخيرَ العقل لها، أما إباء أبسال فيرمز إلى سموّ العقل وعظمته، وأما البرق اللامع الذي رآه أبسال فهو الخطفة الإلهية التي تنير للإنسان طريق النور فينجو من الزلل والخطيئة، أما تغذية الغزالة لأبسال من حليبها فترمز إلى الفيضان الإلهي، وأما التواطؤ لقتل أبسال فيرمز إلى محاولة غلبة القوّة الغضبية على العقل، وإهلاك سلامان لهم رمز لغلبة النفس على القوى البدنية في نهاية القصة.

وقال حي بن يقظان بإشراق رؤيوي: لعل المشابهة في حالتك أنها تقترب وتتماسّ مع حالة أبسال وروحه وعقله النظري ونقائه الرافض للفساد في بعض مجريات ماحدث لك في حياتك من الضائقات والصعاب وخذلانات أهلك وقومك. أنت الآن تشبهني بتوقك للعزلة في جزيرة النسيان هذه، كما تشبه سلامان في الشوق الروحي للتطهر من أدران قومك وتاريخهم الأسود والدموي، لكن

روحك ماتزال مثقلة بماضي الدنيا وعنفها القديم الموروث. أنت وأنا وأبسال وسلامان ضحايا الشرّ المتأصل في الجذوع والأنساغ وخلايا الدم، والميراث الملوّث بالشهوات والأطماع والغرائز الوحشية.

وحين سألته عن كيفية الخلاص من ذلك النسيج الجهنمي، المطوِّق للجسد والروح أشار إلى الأعلى نحو مساكن النجوم والكواكب والأبراج: هناك المحرّك الأول والأخير، مدبّر الأكوان والسرمد، مركز الفيض والجوهر. الفناء فيه هو الخلاص من الأدران كلها ومن الغرائز والشهوات. بالوصول إلى جنائنه الخالدة يموت الوحش فيك. تشِفُّ الروح وتدخل أثيرها الأبدي الرقراق حيث العذوبة الفيّاضة والبهاء النوراني.

ولأنني كنت تائهاً ومنهكاً ومعزولاً في ذلك الوقت خطفتني إشراقاته للوهلة الأولى، كما يخطف البرقُ الإنسانَ الضائع في التيه عبر ليل مُدْلَهِمٍّ أعمى.

وتلاقت رؤاه السحرية الغامضة مع كلمات وإشارات قديمة ومَضَتْ في ذاكرتي، أيام كنت في فجر فتوّتي وأنا نائم في عرزال قرب أبي في الليالي الصيفية وقريباً منّا كان صوت البحر، وأصداء الطيور المهاجرة في السماء، وهسيس الحشرات بين الأعشاب، ورهبة الظلام. كان يتلو آيات غامضة مسبّحاً للخالق في حالة صوفية من التهجّد. وبدا لي في تلك الأغساق مأسوراً كأنما هو في معبد يتضرّع ويسترحم الخالق. وبعينين خائفتين، وأنا على حافة النوم، كنت أراه كأنه يذوب ويتلاشى صاعداً عبر شفافية الكلمات الجليلة وهي ترنّ في خلدي فتورثني الرهبة والخوف من الموت. كنت أرتعد ملتحماً به كاتماً صرخة الرعب الذي شلّني قبل أن أدخل وادي النوم.

وتابع حي بن يقظان: هذه خلاصة تجربتي هنا في هذه

الجزيرة النائية شرحتُها لك. سلامان الزاهد ينتظرني في الطرف الآخر من الجزيرة وسأذهب إليه. طوّف هنا في هذه الأرجاء زمناً وحين تصل إلى خلاصك الروحي وشفافية ذاتك التحقْ بنا.

ثم غادرني على أمل اللقاء القريب.

قال الراوي: وبدأت أطوف في تلك الجزيرة عبر الأدغال والينابيع والأودية والسواقي المعشبة والفياضة، أسمع أصوات الوحش والطيور وحشرات الطبيعة، مصغياً لأصداء كائنات البر ورهبة الصمت والليل.

وفي أجمة، غير بعيدة عن البحر، بنيتُ كوخاً من الأغصان والعساليج والقصب، رفعته عن الأرض اتقاء الوحش والأفاعي والحشرات السامة، كان مأواي في الليالي، رانياً من خصاصاته إلى النجوم والكواكب والقمر في فسحة السماء. أشاهد غروب الشمس ومدّ البحر وجزره، مطوّقاً بالرياح والضباب والأعاصير والبروق والرعود والأمطار وهدير المحيط.

كنت أراقب وأتأمل تقاويم وتحوّلات الفصول في حرّها وبردها واعتدالها عبر الدورة الطبيعية للأرض الصلبة التي تحملني.

الأرض العظيمة والأم المعطاء في ثمر أشجارها، ومياه ينابيعها العذبة، وهوائها وبحارها، وأصوات طيورها الغرِدة، وأصدافها وأسماكها وبذورها وحيواناتها وأعشابها وخضارها. العصارة التي تسيل عبر دمي صاعدة في أنساغي لأكون أرقى مخلوق يمشي على قدمين. منها تشكل تكويني في الدم والخلايا والأنسجة والأعصاب والحركة والدماغ.

أنا ابن هذه الأرض وحدها في هذا الوجود الحيّ إذن!

وفي لحظة من لحظات التأمل العميق عبرتني رؤى وإشراقات حي بن يقظان، صديقي ومرشدي الروحي الذي قصدته حين كنت

غريباً وضائعاً في الجزيرة التي أَلِفتُها الآن. وبدت لي رؤاه كما ترنيمات أولى. تهويمات عذبة وشفّافة ذكرتني بمخاطبات ودعاءات والدي في عرزال البحر، فاندمجت في خطفة الزمن الطفولي، مع ترانيم أمي في المهد، ثم وأنا أدرج نحو اليفاع والبلوغ لأظل على الصراط، طريق الجنة والخلاص. أناشيد الروح الكثيفة، والنفس المصفّاة من الشرور والآثام والخدائع. الأناشيد الأولى التي انطلقت من بداية الخلق وتوازن الطبيعة، ما بعد الانفجار الكوني العظيم، والاختمار البدائي للحياة على الأرض. الأناشيد السريّة للحرية والعدل والبهجة والصدق والمحبة، التي رست في أعماقي، قبل التلوّث والفساد، منصهرة مع عصارة الدم والخلايا والأنسجة والأعصاب والحركة والدماغ.

قال الراوي: وكانت الطبيعة وعناصرها قاسية وحنون، شفّافة وصلبة، مضيئة ومعتمة، تشبه أمّاً صيغت من صلصال كوني مبهم وعاقل، جنوني تارة وحميم تارة أخرى. وبدت الألفة معها في الأيام الأولى صعبة، قاسية بلا رحمة، تحتاج إلى طاقة عضوية وروحية وإرادة لاتلين.

وفي أوقات الشدّة والقسوة كنت أهجس بأن الروح قوّية لكن الجسد ضعيف. داهمني هذا الإحساس حين ألمّ بي المرض جرّاء الطعام الواحد والبروتينات اللاتنوّع فيها، واضطراب المناخ، واستهتاري بالعوامل الطبيعية عبر تحوّلاتها الفصلية، وخبرتي المحدودة في هذا الفضاء الموحش الجديد.

وإبّان مرضي وبداية هزال جسدي برقت في رأسي إشراقات حي بن يقظان، فبدأ تماسكي العقلي يترنح، وعبر ميلان الضعف الجسدي تألقّت الروح طائفةً عبر ضباب أثيري يشبه ألوان قوس قزح. ومن خلال ذلك الضباب اندفع تاريخي الذي هربت منه، فلفحني حنين عابر لزمن غابر خيّل إلي أنني انسلخت عنه إلى الأبد. توق إلى الأصدقاء والأهل والناس الذين عرفتهم في الأزمنة المنسية هناك.

وتساءلت بشك إن كان هذا الهروب هو المنقذ من تلك البربرية الضارية؟ وهل خلاصي الفردي يصلح العالم؟ وأنا تحت الحمّى التي اجتاحت جسدي جاءني صوت حي بن يقظان كالنذير: إذا كنت مع الله فهو معك.

وارتعدتُ: ماذا لو أن إشراقات حي هي الحقيقة؟ ولوهلة، جرّاء انهدام الجسد، وقعْتُ في التيه.

كان ذهني مضطرباً ومبلبلاً. اختلّ التوازن العقلي، والانسجام الطبيعي. وبدا الإدراك مشوّشاً عبر خفوت ضربات القلب، وبطء جريان الدم في الأوعية، وهذا الضباب المطوّق لبوصلة الدماغ.

كنت الآن في فضاء آخر وأنا تحت الضائقة، على أبواب الظلمة والغياب، وخيّل إلي أنني أعبر المطهر إلى الجحيم أو الجنة أو العدم. وداخلتني اختلاطات وتهاويم والتماعات رؤى وأشباح وظلال شاردة عن التوازن العقلي والسياق المنطقي، وأحسست بجسدي يعبر عتبة التلاشي. وما تبقى من ضياء الروح رأيته يهوّم كخفق أجنحة طيور وفراشات ملوّنة وانعكاسات بريق شمس في أعماق بحر. التماعات نجوم بعيدة عَبَرت مساءات طفولتي الأولى راحت تخبو في الأفق. ورأيتني سابحاً بروح مموّجة في مدارات أطياف بملايين الألوان.

ورأيت، فيما يرى عابر الغيبوبة النهائية، طيفاً أو ظلاًّ يشبه ظبية جميلة تكتنفني وتنوّرني، راحت تسقيني من ضرعها حليباً عذباً منعشاً كأنه حليب كوثر الجنة الذي حدّثتني عنه أمي وهي تدعولي: اللّهُمَّ اسقكَ يا بني من نهر الكوثر يوم العطش الأكبر.

وأرضعتني حتى ارتويت فعاد إلي نبضي وحيويتي.

ـ هذه غزالة الله.

امتزج صدى صوت حي بن يقظان بصوت الروح ودفقة الحليب وهي تسري في البدن الذي بدأ يستعيد الحياة.

قال الراوي: وفي الصباح، مع الشروق البنفسجي للشمس، نهضتُ بحيوية دفّاقة واتجهت إلى البحر.

تحت ضياء الفجر الأول بَدَت الجزيرة بهيّة، وضّاءة، مشرقة، صلبة وراسخة تحت سماء بلون البحر. وتراءت لي الحالة التي عبرتني نوعاً من الاختبار الصعب. إشارة ورمزاً في سياق الشك واليقين. اليقظة والغياب. الحياة والموت: ما قبلهما وما بعدهما.

عبر هذه الحالة الارتيابية، المستعصية والمتشابكة، شملني الصفاء والنقاء الداخلي والبهاء.

كنت الآن متماسكاً أكثر في سياق إحساسي بأنني تطهّرت من جراثيمهم وغرائزهم الوحشية والانتماء القديم.

الآن أنا بريء منهم، ومن تاريخهم الأسود.

حين اتجهت صوب البحر لمحتُ فوق مرج معشب غزالةَ البحر تداعب صغارها. الغزالة التي أرضعتني حليبها الكوثري الساخن وأعادتني إلى الحياة: أمي. عَدَوْت نحوها وعانقتها. نفرتْ شوادن الظباء مني وابتعدت، وحين ثغَتِ الأم بندائها الأمومي العذب عاد الصغار.

وكأطفال نَمَوا في الماء، وهم أجنّة يسبحون في رحم الأمهات، اجتاحنا حنين الطفولة والعودة. ركضنا معاً ونحن نصرخ بأصوات حيوانية ونداءات بدائية، ودخلنا في لجة البحر.

اغتيال في الغسق

«أربعةُ خناجرَ أجبرته على السقوط
حين سمّرتِ النجومُ
حراباً حادّة في المياه الرمادية.
إذ كانت الثيرانُ الصغيرة
تحلم بمنثور زاهر،
دوّت أصواتُ موتٍ قربَ النهر»

لوركا

1

ها قد مضى على فراقنا سنوات ست، توازي مدى عمرك الذي عشناه معاً قبل أن تُغتال.

أنت الآن هناك في العالم السفلي، عالم الظلمات والشقاء الأبدي، كما تروي الأساطير.

وأنا هنا في عالم الضياء والبهجة العابرة، أشهد الصباحات وأنوار الشمس وأنواء الشتاء وصخب البحر.

هل سيكون سابقاً للأوان القول: لو نتبادل المواقع! أم هي أمنية لا معنى لها؟

أعرف أن هذه الأمنية ـ الرسالة لن تصلك.

البريد بين عالمينا مقطوع، لذا لن أضع هذه الكلمات سوى في زجاجة وهمية، مغلقة، وأقذف بها إلى البحر، أو أكتبها فوق هذه الأوراق البيضاء لتُنسى بعد قراءتها.

ماذا تعني عبارة: إنني حزين وممرور جرّاء فقدانك. وذكراك ماتزال ماثلة في ذاكرتي كما وشم أو منمنمات أو موسيقى أو هسيس موجة بحر في صيف حارّ؟

وقائع ومشاهد أيامنا الغابرة ماتزال مرتسمة على الشاشة الداخلية بقوّة عصيّة على الامحاء. الدروب التي عبرناها معاً. الوديان والأدغال والسهوب الخضراء، ونحن مأخوذان بحمّى الصيد

وشهوة الحرية ونداء البراري وإلهتنا المشتركة: الطبيعة. لكم تبدو هذه الفضاءات الحميمة مقفرة الآن، وموحشة في غيابك!

الآن أكتب عنك وعنّي. عن الزمن المفقود الذي مضى. حنين الموسيقى التي أسمعها في هذه الهدأة في الليل تأخذني إلى الأقاصي والأقاليم التي طفنا بها معاً في الصباحات والأغساق.

زمن قديم انطوى لم تبق منه سوى الأطياف وسوى الحسرات.

يا لتفاهة الحياة وعذوبتها في آن!

حين يراني الآخرون، والبندقية معلّقة على كتفي، وأنا أتجه نحو دروبنا القديمة، وأنت لست معي، أسمعهم يهمسون: يا للصياد الوحيد!

وحيد ومستوحش، وطيفك يتقدمني وأنت تهرول وتلوب عبر حقول الزرع وداخل الأدغال لاهثاً في البحث عن الطرائد.

سيكون من السابق لأوانه رواية فضائح الصيد، ومغامرة الأهوال، وسِيَر الأكاذيب التي يلفقها الصيادون النفّاجون. المبالغات والتباهي ونسج الحكايات حول المهارة الخارقة في الرمي، وعدد الطرائد، وخوارق كلاب الصيد المتناسلة من أصول لا يرقى الشك إلى سلالاتها الإفرنجية، بينما هي من مرابض الغجر. رائحة هذه المبالغات ممتعة في فوح نرجسيتها، لكنها تشبه في النهاية فوح رائحة ضرباتك الغازية التي كانت تفجّ علينا، نحن الصيادين، سواء في استراحة الصيد تحت الأشجار، أو داخل الباص، حتى ليكاد يُغمى علينا ونحن نعود منهكين نتسلى بالأكاذيب والوقائع الخارقة والغريبة التي نسجتها الأخيلة عبر نهار متعب.

سأسامحك الآن عن حماقاتك التي لاتُحصى، الحماقات التي ورّثتني المتاعب وقادتني في لحظات إلى احتمالات لاتحمد عقباها.

في الآن ذاته أرجو السماح منك عن بعض الأكاذيب البيضاء

والمغالاة حول قدراتك الخارقة والمجليّة في الوثب الفراغي لقنص الطرائد وهي في الفضاء قبل إطلاق الأرض، وإهدائها إلي حيّة، برهاناً على براعتك وأصالة سلالتك الغجرية. ستكون هناك مبالغات أخرى سأنسجها عنك فيما بعد وفاءً للزمان الحميم. الزمان الوحشي والجميل لصديقين ولدتهما الطبيعة قبل ولادة الآلهة يوم كنّا في رحم الغمر الأول للكون.

2

ها نحن نروي حكاية مضى عليها أعوام. هي في جوهرها قصة صديقين فرّق الموت بينهما في لحظة غفلة. وكما ستعرفون أو تتخيلون أو تؤولون سيبدو الالتباس والإبهام في السياق بأن المسألة بسيطة ومعقدة في آن.

غير أن ما يُسأل هو: من أين نفذت طلقة الغفلة تلك؟

من أي خلل هبط الزمان الغادر؟ البرهة المخاتلة الخاطفة كيف باغتتك وأنت في حبور طمأنينة الروح، مخدوعاً بالسلام لعالم تخيلته مموّجاً بالاخضرار واحتفالات البحر؟

لابدّ أننا كنّا في الزمن الطفولي آنذاك. هو وأنا كنّا نستعيد المرح الأول يوم جاءني وهو في الشهر الأول.

كان مايزال يحبو. دائم العواء. لا يعرف كيف يأكل بعد أن فُطم عن أمه. وحين وضعنا له الحليب في الصحن وهو بالكاد يراه داس الصحن وقلبه على الرمل ثم بال عليه.

كنّا نخيّم في ذلك الصيف الأثير على بعد عشرين متراً من البحر.

كان صيفاً من الضياء والحبور العذب، جاء بعد سنوات الشقاء والمنفى وفضاءات الغربة.

في ذلك الصيف الأثير والشفّاف كنت أرمّم خراب الأزمنة المضطربة والعاصفة.

الخروج من غياب ورائحة الزمن المبدّد بحثاً عن المستحيل، والطيران نحو منابع الحرية الداخلية، حين ابتدأ النفير العاصف يومذاك.

على حافة البحر، كما يجمع الأطفالُ الأصدافَ المنسية، كنت أجمع نثار شظاياي: الأسرة. الطفولة المفقودة. رائحة البحر والأرض والفضاء وبقايا الأصدقاء.

عبقُ الزمان المهجور بعد اثني عشر عاماً، وأنا ملقى على دفء الرمل، محدّقاً في السماء السحيقة، كان يتضوّع ويحفّ بالأضلاع الواقية للقلب.

فيما بعد سينمو في ظلال الدلّال واللعب والنوم بيننا، وكأنه واحد من الأسرة، داخل المخيّم وتحت الخيمة الظليلة المجاورة للمخيم، وفوق الرمال.

أول غطسة له، وأنا أحمله عبر المياه، تغمره موجة فيعوي لاعناً وهو يثب نحو الشاطئ.

ينفض جسده ثم يهرول باتجاه ساحة التخييم. يتمرغ فوق الرمل الحارّ. بعد استراحة قصيرة تلوب عيناه بحثاً عن صديقه اللدود. هذا الذي غدر به وأعمى عينيه بالمياه المالحة.

سيهرب مني إذ يراني مبللاً وعارياً قادماً نحوه وأنا أضحك شامتاً: فيديل. أيّها الجبان الرعديد! أطارده. فوق الرمل نتماسك ونتهابش. نتمرغ ونشتبك. أرفعه عالياً وأنا ملقى وهو فوق صدري. يعوي ويلعن ثم ينقضّ على وجهي وصدري ممرّغاً رأسه بين قدمي، ثم لا يلبث أن يهرب بعيداً عن حافة الماء متجهاً نحو المخيم.

يعدو بعيداً بمرح طفولي ثم يعود إلي واثباً وهاشّاً بعواء يشبه الضراعة.

ـ دعنا من هذا العدوّ. يقول لي وهو يرمق بطرف عينيه نحو البحر.

فيما بعد سيعتاد السباحة، ولو بمضض، في لحظات اشتداد الحرّ.

3

أنت تخرق المألوف حين تخيّم في بيئة فلاحين ومزارعين تجذروا بالأرض منذ القدم، واستداروا عن البحر الغريب القائم على مرمى حجر من أراضيهم.

لابد أنهم كانوا يخافونه كمجهول. البحر المسكون بالحيتان والدلافين وكلاب البحر والسمك العملاق والطّيار وجنيّات الأعماق الساحرة والكهوف الصخرية المسكونة. البحر. عالم الظلمات العميق الذي ابتلع السفن والبحّارة، والذي غرقت فيه أعظم بارجة في العالم «التيتانيك»، تلك المعجزة التي كتب عليها: هذه التي لا تُحرق ولا تَغرق.

كانوا يتداولون ذلك في الأمسيات، وفي أعماق الرعب الداخلي من رهاب الماء.

كان صيفاً للنسيان والأزمنة التي كنت فيها قاب قوس من هاوية الموت.

أصدقاء قدامى، وأبناء، وبشر غرباء، كانوا هناك تحت الضياء، فوق الرمل أو في لجج البحر. فيديل وأنا كنّا شبه معزولين في أوقات اللعب والمرح، بعيدين، داخل الطيف الداخلي لكلينا، عن الصخب المموّج لهرج الآخرين.

كنا نبني صداقتنا السرّية عبر الحركات والعواء المتبادل

والركض على الرمل، ورمي الحصوات وقضبان القصب للتدريب، تحت بهجة الشمس.

ربما كان العقل الواعي والعقل الغريزي يمارسان لا عقلانية الطبيعة واحتمالاتها الغامضة!

حين أقذف له بحصاة أو خشبة ثم يجري نحوها نادهاً به كي يأتي بها إلي، كنت أمتحن لا طاعته وانصياعه، بل ربما تكوين لغة مشتركة بين صديقين لغتاهما في النطق غريبة عن الأخرى، لكنهما متخاطرتان عبر الحركات والإيقاعات والأصوات.

منذ الطفولة كنت آلف الحيوانات في البيت الريفي القديم. كانت هناك القطط والحمير والخراف والأرانب والماعز، ثم جاءت الطيور البريّة التي كان يصطادها الوالد والتي دجّنتها وبنيت لها مواقع في ملحق المؤونة الخاص، المفصول عن البيت المخصص للحيوانات والدواجن.

هذه التداعيات الموغلة في قدم طفولتها تتموّج الآن هنا على حافة البحر.

لكن لا شيء يعود كما كان لأن الزمن يهشم الطفولة. يدخلها في كهوف عميقة ثم يخيطها بخيوط العنكبوت.

إذ ابتدأ أُلفة الماء مرغماً، راح يختلط بالسابحين. طفل مبقع بالأبيض والأسود يعوم بالغريزة.

رأسه فوق الماء ونصف جسده السفلي تحت الأمواج. تحت الخيمة البحرية كنت أراقبه. ذلك الأخرق الجميل المسكون بالمرح. لعل عقله الغريزي استوهم أنه لا يختلف عن الآخرين من هؤلاء العائمين في البحر. كانوا ينادونه ويؤرجحونه وهو يثب فوقهم مداعباً داخل الزبد وفوق غمر الموج.

حين يبحث بعينيه العسليتين، اللامعتين، فلا يراني في البحر يتجه نحو الشطّ، مندفعاً كالسهم باتجاه ساحة المخيم.

4

كان صيفاً لا يُنسى.

سيرتسم في الذاكرة كعلامة تُنحت في صخرة القلب. علامة عصية على الامّحاء. هناك على الخليج المطلّ على جزيرة النمل، الشبيهة بتمساح يتمدد فوق سهب البحر تحت الشمس في قيلولة أبدية.

في ذلك الصيف المنعش، البهيج، كنّا نحاول استعادة الروح. توق الصعود ببهجة الجسد إلى مرتقاه الطبيعي نحو ينابيع الطفولة المفقودة.

أن نقذف بالوشل والأحزان إلى الأعماق اللجّية لنحتفل بالضياء الداخلي للروح.

هل كنت فرحاً حقاً بالعودة إلى الوطن في ذلك الزمن؟ أم كنت مأخوذاً بالطفولة المستعادة والحنين، وأنا مرهق بكوابيس الغربة؟

لعلّ شيئاً آخر يستعصي على الاكتناه ربما، هو الذي أعادك مرّة أخرى إلى الرحم الأول.

في ذلك الزمن السحيق كان الآخر المنسي متعباً يحتاج استراحة دافئة.

وفي ذلك الزمن الطيفي، المستعاد الآن عبر هذه الحكاية، تراءت العودة إلى الوطن بعد عشرٍ من السنين الصعبة، كمن يسبح في فضاء.

لا شيء كما كان في الماضي، ولا شيء ينبئ بمستقبل.

عالم يعوم فوق الأسباخ الرجراجة. بشر يحتفون بك مالئين الفضاء صخباً وحبوراً بأصوات ووجوه طافحة بالفرح والدفء،

لكن الأعماق كانت تنوح وتتموّج بأغانٍ وأناشيد تجرح صخور القلب.

ما الذي جرى في السنوات العجاف إذن؟

بدت الأسئلة مؤجلة إلى أن جاءت أزمنة الكوابيس. أزمنة الحوارات والمحاكمات الداخلية بين الأنا القديم والأنا الراهن، بين من اعتكرت روحه في المنفى، وبين من ينزف داخل الأسوار.

- هي الغربة أم الجحيم؟ وأيّ النارين أقسى؟

لعل صديقي فيديل سيطرح ما يقارب هذه الأسئلة، وهو يراني مبحراً في الجهامة والصمت، وأنا أدخن فوق صخرة في السهوب الشرقية تحت قيظ الظهيرة في استراحة الصيد. إنه يحفّ بي ويلحس وجهي ثم يتذمر ويعوي ضجراً. حين أداعب رأسه وأمسح ظهره يقول الصمت: لاتيأس يا صاحبي. الحياة ماتزال جميلة ومروج القمح خضراء والشمس تسطع.

وفي ذلك الزمن الطيفي، الهارب، وأنا أحاول الإمساك به الآن حتى لا يتلاشى، كنت آوي إلى بوابات البحر هرباً من الأسئلة والرَّفض الداخلي.

ألوذ بصخور جزيرة النمل وأنا أهجس: اعصميني أيّتها البارّة. هاتفاً في السرّ: ما أطول الرحلة وما أقلَّ الزاد.

هنا في هذه الأصقاع التي ستهجرها الطيور والأسماك والبشر آن سيداهمها الصيادون والقتلة ويكون العالم يباباً.

5

معذرة منك يا صديقي الراحل.

ها أنذا أخرج عن السياق. كما راوي الحكايات القديمة مقحماً في الحكاية حكاية أخرى لعلك بغنى عنها.

لكن ما جرى ويجري يعنينا جميعاً. أنت الذي حدث اغتيالك على ذلك النحو المفجع، وأنا المرشح للاغتيال يومياً في بلاد تتجيّف الحياة فيها ويُفتقد الأمان.

هل ينبغي إخبارك بالفاكس الروحي. بالتخاطر بين الأحياء والأموات، أنني مجذوب، بعد أقل من عام من عودتي، بالحنين إلى الغربة والرغبة في العودة من حيث أتيت؟

أيّ إنكسار وأي صَدع هذا الذي يشرخ الروح!

ها أنذا أبوح لك في هذا الهزيع الليلي، لكأنك حيّ لم تمُتْ، بالمكنونات التي خبأتها. هي كانت نائمة هناك في الآبار الداخلية أيام كنّا معاً نطوي ونجتاح البراري تحت الشمس الحارقة، أو نلجأ إلى الكهوف إذ تبدأ الرعود بزلزلة الأرض والفضاء مؤذنة بدفق الأمطار والأعاصير وأنت تلتحم بين أحضاني مذعوراً كما طفل مداهم بالخطر.

كانت أزمنة للغبطة واحتفالات الحرية. أزمنة لاختبارات الجسد وتوق الروح والانعتاق، وإطلاق نيران الطاقة المحبوسة في الخلايا. هكذا كنّا معاً تحت دويّ عاصفة الطبيعة وهي تطلق شياطينها، بينما القطرات تحت البرق المتواصل تنهمر فوقنا.

يومذاك كنا وحدنا في عراء الأودية، تحت الصخرة المحنية، هناك كنّا نتضامّ. المِمْطَر يغطي الرأسين والظَهرين بينما الأطراف تحت البَلل.

ـ متى تهدأ العاصفة؟

كهذه البروق التي تلمع في السماء الرمادية كانت الأزمنة القديمة تبرق. تخرج من كهوف النسيان على شكل موجات موشحة بأطياف الطفولة، ثم زهو الفتوّة، ثم الصرخة الداوية لتغيير العالم، تحت غمرة هبوط النساء العاشقات واحتفالات الجسد والمدن

العامرة بالضوء والأمل. هناك حيث ستشرق الشمس بعد هذه العاصفة، قبل الهليل الصحراوي المنبئ بتقويم عصور الجراد والأرض اليباب.

ـ لِمَ لا تعود أيّها البائس من حيث أتيت؟

سأل الآخر البعيد المسكون بالحنين.

هناك كانت الغربة الجميلة العزلاء، لكنها الآمنة والهادئة. حزين، وحرّ، ومستوحش. غريب في المدن الغريبة لكنك لست مهدّداً ولامراقباً أو ملاحقاً في إيقاع حياتك اليومية.

هدأ المطر بعد ظهيرة ذلك اليوم. خرجنا من كنيفنا نصف مبلّلين. رحلت أطياف الحنين والتداعيات السوداء، وصحا الجوّ.

رأينا أوراق الدغل تلمع تحت الصحو بينما الأرض تسيخ تحت الأقدام. نفضنا البلل وانحدرنا بين الأحراش عبر كروم الزيتون. كانت طيور السمّان تعبر في السماء الصحو. أطلق فلا أصيب. تجري وأنت تسمع الطلقات بحثاً عن الطرائد بين الأعشاب ودغلات السنديان وشجيرات القتاد المزهرة فلا تلقى أثراً. تلتفت نحوي معاتباً أو شاتماً أو مؤنّباً. لابدّ أنك كنت ضجراً من هذا الصيّاد الخائب. هو الآخر كان عصبياً ومتوتراً. كان يرمي عشوائياً وحين لا يصيب يتذرع ببعد الطيور تارة، وسرعتها، وانخطافاتها في لحظة التسديد.

ما كان صيّاداً ماهراً أو محترفاً في الأصل.

وفي أصل وجوهر الحكاية ربما كان إنساناً هروبياً، يهوى البراري والفضاءات الطلقة. وفي الأعماق البدائية للزمان الأوّل لعله كان منجذباً في لاشعوره الجمعي اللامدرك نحو جذره القديم المنحدر من جدّه الكهفي الأول: الصيّاد المتوحش.

هي تسويغات للتبرئة من القتل على ما يبدو.

ها نحن ندخل في التحليل والتأويل تسويغاً للإحباط الذي جرى في ذلك اليوم الممطر. يوم الصيد الممتع رغم عواصفه وأمطاره والخوض في الوحول ومياه الوديان والخيبة في الرمي.

لكن ما جرى في غسق ذلك اليوم، ونحن نعود إلى البيت، كان غريباً.

لم تعدْ إلى البيت في تلك الليلة.

كنت تتقدمني على مسافات متفاوتة عبر شعب الدروب الصخرية والموحلة التي تعرفها جيداً بحيث تصل البيت قبلي، دافعاً بقائمتيك بوابة الدار لتنبئ أهل البيت بعودتنا. لكننا في الصباح افتقدناك في بيتك. كان وجرك خاوياً.

لابد أنها إحدى نوبات مزاجك العكر.

هل كنت غاضباً من إحباط الصيد؟ أم هي عاصفة المطر التي ضربتنا فاعتكرت وحَرَدْتَ؟ أو أن الشيطان الحيواني وسوس لك وقادك إلى مصيرك الجريح؟

لم تمت في تلك الليلة التي هربت فيها. لكن الحادثة ستكون شبه نبوءة بمصيرك الأخير.

سأدرك ذلك بعد فوات الأوان، وعبر المحاكمات التأنيبية القادمة.

6

كان صيفاً لا يُنسى. تلته أصياف من الألفة والعذوبة واستعادة الزمن المفقود. كنت أرمّم ما تبقى من شظايا الزمن. الأسرة التي ضربتها عاصفة الشتات. من تبقى من الأصدقاء الأحياء الذي شتتهم الزمن. ننسج علاقات جديدة في سهرات ليالي البحر قرب النيران ونحن نشرب ونغني ونرقص. مدلجين عبر بوابات الحرية والجنون الطفولي، مطلقين طيور الروح، بعد الثمل، في غمرات الموج. كنّا

نشيّد هيكلاً للحرية الداخلية تحت قبة السماء المفتوحة، فوق شاطئ المتوسط المُنار بضوء القمر. سوى أنت وأنا لا أحد يدرك السرّ العميق الذي واشَجَنا. الحبل السرّي بين الحيوان والإنسان قبل بداية الخليقة ومعها. آن كان الزمان غمراً، ولا شيء سوى الماء وبداية ولادة الآميبات الأولى.

لعلّنا كنا خلية واحدة في ذلك الزمان السحيق. خلية انقسمت عبر اختماراتها المديدة، ثم تحوّلت داخل الغرين وتحت الشمس إلى أن صارت يرقة تدب فوق الأرض، ثم فراشة فطيراً فضفدعاً فقرداً، ثم تحوّلنا إلى ما نحن عليه الآن عبر حقب التطوّر كما تروي أسطورة التكوين المعروفة بعد الانفجار الكوني.

سأُتّهم دينياً في ظاهرة التماهي بينك وبيني ككائنين من جذر واحد. كمخلوقين جاءا من الغرين المختمر.

لكن لن يكون للأمر أهمية تحت الضوء واستنارة الروح الطلقة للعقل وهي تنير الظلمات. فأنت تعرفني، عبر علاقتنا الروحية والعضوية، كيف كنت أضرب عرض الحائط بتلك الترّهات وخرافات التمايز والدنس وأنا أداعبك وأرقص معك. نتواثب ونتشاتم ونتعانق ثم ننام على الرمل كصديقين حميمين. تلمس وجهي وتثب فوق صدري. كما لابد تذكر، في الخيمة البيضاء كيف كان لنا سريران. ترفض النوم على الرمل، وإذ أحاول طردك عن السرير تلمع نواجذك هادراً، رافضاً النزول كأنك تزجرني بغضب: لم أنت تنام في السرير بينما أنام على الأرض؟

ـ فيديل أيّها الأحمق. إنها الطبيعة التي ما يزتنا!

الحق أقول لك: كنت أخافك في تلك اللحظات من الغضب الذئبي.

كان تاريخك السلالي، المنحدر من دم الذئاب، يشيل يوم هاجمتني لأنني ضربتك بقسوة في أوقات السفاد، وأنت في حالة يُرثى لها من الوسخ وجراح الكلاب الشاردة والروائح المجيّفة التي

تفوح من جسدك. بعد أن جرحت معصمي ونزفت صحبتك إلى البحر وطهرتك من الوشل والأوساخ، ثم ضمّدت جراحك وطهرتها باليود والكولونيا.

مشهد غفراني أيقظ، في فسحات تأملاتي، المسافةَ التي لابد أن تفصل بين الحيوان والإنسان.

الآن، وبعد غيابك اللارجعة منه، لكم أشعر بالتأنيب جرّاء العقوبات والشجارات والصرخات التي صدرت مني في ذلك الزمن الغارب.

ولأنني كنت أعتقد أن الإنسان هو الأرقى في الوعي وسلّم التطور حاولت عبر تاريخ علاقتنا تربيتك وتدجينك وكسر الحلقة المفقودة بيننا، عبر استيهام توليد لغة مشتركة طيفُها الإشارات والأصوات والحركات والرموز.

عبر الزمن والتجربة والألفة قطعتَ شوطاً في العبور والخروج من الميراث الذئبي الموغل في القدم والتوحش.

كنت مدللاً في البيت من الأهل والأبناء عبر المداعبة واللعب وحرية الدخول والخروج لكأنك أحد أفراد الأسرة. وفي حالات من النزق كنت أصرخ بهم: أنتم تفسدونه بهذا الدلال. هذا كلب للصيد والبراري وليس هرّاً لصيد الفئران والنوم في الفراش.

الآخرون من الأصدقاء تآلفوا معك بحميمية غير مألوفة بين الحيوان والإنسان. لابد أن ذكاءك المدهش كان مثيراً.

ـ لا ينقص فيديل سوى النطق. كانوا يقولون وهم يرون حركاتك النابهة واستجابتك وبداهتك إزاء أي إثارة أو إشارة تختبر انعكاساتك الشرطية.

ذلك الاستعصاء في النطق كان يصدر على شكل عواء أو أنين نادب في لحظات الغضب أو الحزن أو التودّد الحميمي.

ترى هل أنت الحيوان الذي كان آدمياً في غابر الأزمنة؟ والآن تتقمّص هذا الجسد الحيواني عقاباً على ما ارتكبتَ من الأخطاء والذنوب كما تقول بعض المذاهب الدينية في أساطيرها وخرافاتها اللاعقلانية؟

شعور غريب ينتابني إذ يتراءى لي شبحك الحي.

أسطورة التقمص هل هي حقيقية أم محض خرافة؟ والروح، هذا الأثير الشفّاف اللامدركة ماهيته وكنهه ما مصيره بعد الموت؟ أيتبدد في فضاء الكون وذراته كما الأصوات أم يحلّ في جسد آخر؟

ولكن كيف ولماذا يتذكر بعض الأطفال من البشر زماناً غابراً ومكاناً بعيداً ولدوا فيه. يذكرون منه شذرات تعبر كالأطياف على شاشة ذاكرتهم؟ ثمة وقائع حقيقية لهذه الظاهرة ليست من نسيج الخيال.

حين استمعت لحالات من هذا النوع في البلدة انتابتني حالة ذهول تلتها بلبلة عقلية اخترقت جدار المنطق.

ـ ماذا لو كان فيديل صديقاً بشرياً قديماً لي قبل عشرة آلاف عام مثلاً؟

ولكي أهرب من هذا الاضطراب والزوغان، والضلال الروحي، كنت أندفع في غمر الموج الهادئ باتجاه جزيرة النمل.

سبح فيديل ورائي مسافة ما يقارب ثلاثين متراً وإذ رآني أوغِلُ بعيداً في البحر عاد إلى المخيّم.

7

ما نرويه الآن ربما كان حكاية ملتبسة عن تداعيات الزمن، أكثر منها عن الروح وشرودها الغامض.

محاولة مستحيلة لاستحضار الماضي الذي لايعود سوى في توابيت الذاكرة.

وفي نهاية المطاف يستلقي العبث والموت في واحد من هذه التوابيت فلا يبقى سوى الغبار.

حكاية ماكرة عن الصيّاد والكلب في ظاهرها، غير أن مداها المفتوح يتدفق متشعباً عبر مدارات تشبه رمي حصاة في بحيرة تنداح أمواجها موجة إثر موجة لتنكسر على الشاطئ ثم ترتدّ إلى البحر.

مع بداية الخريف نغادر الشاطئ إلى بيتنا في البلدة المطلّة على البحر.

حين تبدأ مواسم الأمطار والرعود التي تزلزل أساسات السماء والأرض تهجع مطوّقاً كطفل في الرحم داخل وجرك الصغير. تحلم بالطيور والأدغال وسهوب القمح المموّجة تحت الرياح الغربية.

يأتيك الزمان الربيعي هناك في السهول الشرقية. معاً تحت الإشراقة الأولى للشمس من وراء الهضاب. أنت تتندى بعبق الصباح مبتهجاً بهذا الفضاء الأخضر والبنفسجي، وأنا مترع بغبطة البراري وشهوة الصيد. تجري وتلوب مبتعداً، بينما مازلتُ في مرحلة الإقبال والتهيؤ وتلقيم البندقية على مهل.

الصيّادون يتوزعون صارخين بكلابهم التي شردت عبر سهول القمح المنداة بطراوة الفجر.

كعادتي أنفرد بعيداً عن الصيادين، وأنت هناك أمامي تتموج داخل السنابل الخضراء بحيوية شبقة، خطمك موزّع بين الأرض والهواء بحثاً عن رائحة طيور الفرّي اللابدة بين الأعشاب. إذ تفوح رائحتها تحت حاستك السلوقية تتوقف قليلاً وتنظر إلى الوراء نحوي بحركة إنباء وتنبيه، ثم تبدأ اقترابك المتوجّس والمتحفّز باتجاه

مكمن الطريدة. بحذر ترفع قدماً ثم أخرى. يتباطأ خطوك لكأنك تعبر في الهواء على مهل. خطمك يتشمم الأرض تارة، ثم يرتفع فوق السنابل ليأخذ رائحتها من الفضاء.

بيننا أكثر من مئتي متر. أعدو بسرعة لأصل إليك.

ـ فيديل على مهل. انتظرْ. هي أمامك. على مهلك لا تهجم حتى أصل.

بغتة، بنزقك الأحمق وشبقك اللاهف تثب فوق العشب لتصطادها. تنفر فتطير وراءها.

طاق. طاق. من مسافة مئة متر.

دوّى الفضاء بالطلقات التي حصدت حفنة من السنابل بعد أن ولّت الطريدة وأنت مازلت تطير وراءها. آلهتك وسماواتك هبطت على الأرض بعد أن رجمتُها نادهاً بك أن عُدْ أيها الأخرق.

ومع أن الشتائم كانت تتطاير حين خيّبت بداية الصيد على ذلك النحو، إلا أنك كنت في مملكة الطرشان تواصل عدوك اللاهث وراء الطريدة. عشرات الطرائد نفّرتها وأنت تجمح وحيداً، غير مكترث بي. بلهاثي وعطشي وأنا أجري وراءك، العرق يرشح من وجهي وجسدي وداخل جزمة الصيد التي دخلتها الأشواك والأتربة والحصوات. كنت أتفصّد تعباً، لاهثاً تحت صهد الظهيرة وأنت تصطاد منفرداً أصماً بين الحقول الخضراء بعيداً عني.

حين رآك الصيادون، في تجربتك الأولى، وأنت تجمح واثباً فوق السنابل بتلك الطاقة الوحشية المتدفقة قالوا: هذا حصان وليس كلباً.

ترى هل كنت تبحث عن الطيور؟ أم كنت تلعب مختبراً قدراتك وقوّة الطاقة الكامنة فيك، داخل هذا المدى الأخضر المفتوح؟

ـ سمّه الأبجر حصان عنترة بدلاً من فيديل!

يقول أحد الصيادين مازحاً ونحن نرتاح فوق مرجة من العشب.

- ربما كان عنترة أو الأبجر في الجيل الماضي. أعلّق بين الجد والمزاح وأنا أشعل سيجارتي متكئاً على صخرة.

يسألني زميلي الصيّاد عن رأيي كمثقف حول ظاهرة التقمّص ومدى حقيقتها.

- سمعت وقائع وحكايات عن الظاهرة. أشخاص روَوا عن حياة سابقة وهم أطفال. الظاهرة ملتبسة والإدراك العقلي والعلمي يراها خارج الاقتناع. ربما كانت المسألة في مدار الاحتمالات الروحية التي لم يدركها العقل البشري بعد.

حكى الصياد عن حالات سمعها وسمّى أفرادها في البلدة وخارجها. هو كان موقناً بالظاهرة على نحو لايقبل الشك.

- الإنسان مجرّات شبيهة بمجرات الفضاء التي لم يكتشف منها سوى القليل. هكذا الإنسان في أعماقه الغامضة.

في لحظة الحوار العَرَضي حول الحياة والبعث والتناسخ شرّفتنا يا سيد فيديل - عنترة مزهواً لاهثاً، كأنك قادم من غزوة حرب. حربك الخاصة التي خضتها كفارس دونكيشوتي طهّر السهوب من أرجاس الطيور الآمنة.

لاأثر من الإنهاك يبدو عليك وأنت تبادر بالشمشمة واللحس قبل أن تستلقي ملتصقاً بي كأنك لم ترتكب خطأ.

إذ أداعب رأسك ورقبتك، كابحاً غضبي من ربّ جنونك، أضغط على بلعومك لأنفث غيظي. تعوي ألماً ثم تهمد مهدّداً بالانتقام.

أي انتقام أسوأ مما فعلت يا حقير! نصف النهار ضاع سُدى وأنا أطاردك، وأنت ترمح بعيداً وتصطاد جرياً وراء غريزتك.

طريدتان لاغير اصطدتهما بالمصادفة، بينما شنّاقات الصيادين تتدلى من خصورهم مليئة بعشرات الطرائد.

سأستمد من محنة أيوب المُبتلى بعض الصبر عليك، أنا الأكثر

نزقاً منك، خشية اندفاع موجة غضب عمياء قد تجتاحك بطلقة قاتلة.

كبحتُ جماح حنقي كي لا أعيد الحادثة القديمة التي مايزال ذكرى جرحها في أعماقي قبل عشرين عاماً، حين أطلقت النار عن غير ما أقصد، باتجاه كلبتي الأثيرة الوديعة نورا، فأرديتُها.

وأنا أستعيد تلك الفاجعة الحمقاء، عبر بكائي الصامت وشعوري المرير بالذنب، أقسمت يومها ألا أسدّد بندقيتي باتجاه حيوان أليف.

أية ضراوة داخل الإنسان تتجلى أعنف وحشية من الحيوان في لحظة التحوّل وانطلاق غريزة القتل!

هكذا، في غمرة الذكرى الأليمة التي استُعيدت الآن، ضربتُ صفحاً عن حماقاتك، ومكرهاً غفرت ما جرى وأنا أستعيد سنوات الصداقة والحب واللعب على الشاطئ في أصيافنا البهيجة.

ها نحن نجري معاً ونرقص. أرمي لك القصبة فتثب نحوها. تمسكها في منتصفها عائداً بها بزهو، كما طفل، ترفعها إلى يدي الممدودة فأتناولها مطبطباً على رأسك: براڤو فيديل. أي جروٍ رائع أنت! تثب بقائمتيك على صدري. تكاد الضحكة الفخورة تطفر من عينيك اللامعتين. عيناك الشبيهتان بقمرين من لآلئ البحر.

ياللزمن القديم الساحر، المطوى الآن في الغياهب، تحت الغلاف الحشوي للقلب الحنون!

ـ لماذا تُباغَتُ الأزمنةُ السعيدة بالغدر؟

أسأل ولا جواب. هنا في العزلة البحرية بعد أن نأيتَ نأي نجم بعيد في سماوات سحيقة لاتُطال. متوحّد الآن كصدفة على الشط. كضفدع أخضر يلوذ في عبّ شجرة برتقال احتماء من هذه الأمطار والرياح المجنونة التي داهمتنا في هذا الشتاء العاصف، وأنت المحمي هناك في العدم المظلم. راقد تحت شجرة الليمون التي

سُمّيت باسمك على مسافة أمتار من مدخل البيت الجميل الذي شُيّد في غيابك. بيتنا حيث لم يُقيّض لك أن تراه وهو ينهض لكأنه شاهدة قبر إحياء لذكراك. البيت الذي كتبت فيه عنك مقطعاً من قصيدة حزينة:

«كيف أكتب عن صديقي

الجميل، المجنون

«فيديل» الوفي عاشق البراري والحرية

وموسيقا البحر،

صديقي الرشيق رشاقة الفهد

آن تنفر طيور الفرّي والحجل،

رفيق السنوات الست

الذي اغتيل في غسق عسكري».

8

وأنا أروي عنك يخالجني شعور بالاختلال. إحساس باضطراب العدالة.

لو تروي أنت شيئاً عن أحاسيسك كحيوان من فصيلتنا الدونية.

«من الصعب تذكر طفولتي الأولى. كيف فُصلت عن أمي وأخوتي وجيء بي في كيس مظلم من وجر ضيّق لكنه حميم، ثم رموا بي وحيداً، بعيداً عن أهلي.

شبه أعمى. أعوي حنيناً إلى أخوتي وأمي. أول طعام لحسته كان حليباً مغايراً لحليب أمي شرقته بجوع، ثم ما لبثت أن بوّلته. أسمع أصواتاً وأحس دبيب حركات حولي لكن عالم أهلي كان يدوي في رأسي.

طعام.. بول.. عواء.. نوم.. جري ولحس الآخرين.

يوماً إثر يوم بدأت الغشاوة عن عيني تنجلي. لا أعرف كم كان عمري آنذاك. ربما كنت في الشهر الثاني، كما يروي صديقي هذا الذي يكتب عني بحب وحنق متوازيين.

رأيت العالم على مستوى أفقي. كان رحباً لا حدود له. قوائم الخيمة التي اصطدمت بها. أوتاد المخيم وأنا أجري إلى داخله. أرجل الناس التي أداعبها وأصابعهم الممدودة وهي تشيلني عن الأرض وتحتضنني، حيث أتكور مستعيداً الحنين الغامض لحضن أمي، وفي الدفء أبول في حضن من يداعبني.

فيما بعد تأنسنت. غاب عالم الحنين الأهلي واندمجت في هذا العالم الغريب والسحري.

الضوء. الاتساع. الانبهار، ثم صدمة البحر الباردة وأنا بين ذراعي صديقي. ما كان البحر جميلاً وأنا فيه. كان يلسع جلدي ويدخل ماؤه المالح إلى جوفي. ما كنت أصدّق متى أخرج إلى الشاطئ الرملي لأنفض الماء عن وبري راكضاً باتجاه المخيم.

وأنا على التلة الرملية بدا لي البحر جميلاً عن بعد. عالم لانهائي، غامض ومخيف. أحببت الرمل الحارّ والمداعبات، وبدأت أرى العالم باستقامة نحو الأعلى بعد أن نَمَوْت بالخبز والعظام وفضلات الأطعمة. كم بدا البشر كباراً وعمالقة. هم هناك في الأعلى وأنا الصغير هنا في الأسفل أجري بين أقدامهم يرفعونني عن الأرض ويداعبونني كدمية وأنا سعيد بهذه الرفاهية وهذا الدلال.

تُقذف كرة بعيداً فأجري وراءها وآتي بها: براڤو فيديل. فأتلقى قطعة شوكولا أو بسكويتة أو عظمة فرّوج تشجيعاً.

بالرائحة القوية، المميزة، عرفت صاحبي وفرزته عن الآخرين. رائحته كانت الأقوى. في الشهر الرابع بدأت أميّزه بالعين والرائحة

والغريزة الخاصة الغامضة عن الإنسان. كان الأكثر حميمية بالنسبة لي.

حين يَغيب أشعر بفراغ وحنين وشوق. وإذ يأتي أثب عليه معاتباً: أين كنت أيّها الهاجر؟

ما كنت أشعر بالأمان سوى في حضوره.

سأروي لكم حادثة عن رجل غريب اقتربتُ منه ولَحَسْتُ أقدامه مداعباً. كنّا في الليل وكانت هناك سهرة فيها ضوضاء وأصوات ومرح. وأنا أجري مرحاً تحت الطاولة وبين الأقدام. فجأة تناولني الرجل وقذف بي بعيداً عنه: ما هذا الحيوان الكريه!

وثب صديقي وحملني بين ذراعيه وأنا أعوي من ألم السقطة.

ـ هذا الحيوان أفضل منك. أنت في استراحتي وهذا مخيّمي. عليك أن ترحل الآن من هنا وإلّا... لابد أنه كان رجلاً ثريّاً وأنيقاً ومدينياً، دنّس طهارته كلب نجس.

في تلك الليلة دوّت الأصوات وطُرد السهارى المتطفلون بنزق وغضب وصل حافة الصدام».

9

في الليالي القمرية والنهارات كانوا يهبطون علي غير ميعاد. وبدا للأصدقاء والمعارف وأهالي القرية أن مخيماً لابن بلدتهم العائد من البلاد الأجنبية يُنصب على حافة البحر حدثاً غريباً ومثيراً.

في مخيلتهم القديمة غير المدركة والفوضوية الريفية تجلّى المخيم كمضافة بدوية مفتوحة لكل عابر.

في النهارات والليالي كانوا يَفِدون بنسائهم وأطفالهم وحقائبهم وفراريجهم وزجاجات الخمر والبصل والحمص والثوم

والبرغل ورؤوس الغنم المسلوخة ليقيموا حفلة طبخ تفجّ منها روائح الدهن واللحم والعظام والدسم تبقى رائحة زنخها في فضاء المخيم على مدى أسبوع .

حين يأتون أهرب. أتركهم مع العائلة وفيديل وأغادر إلى الصيد على الجزيرة.

عبر نهر الضوء القمري الممتد حتى نهاية الأفق، وأنا ممدد على سطح البحر الدافئ أحلم بالحرية المفقودة. وحيد في هذا العراء البحري أحلم بالإبحار بعيداً. لو أن هذا الموج يرميني على شواطىء غامضة. يأخذني إلى جزيرة حي بن يقظان التي قرأت عنها وتخيلتها كجنة ترعى فيها الغزلان والأيائل والطيور البرية والوحوش الأليفة.

لابد أن هذه الحيوانات كانت أسرتي في الزمن القديم. الزمن الذي أكابد كي أتذكره، هو هناك في مكان قصيّ وعصيّ على الذاكرة.

بدا لي في لحظة الإبحار، أن الحد الفاصل بين الإنسان والحيوان ليس أكثر من فقدان ذاكرة أو تشوّش في العماء الكوني. لكم أودّ لو يستعاد تكويني البشري بعد ألفي عام لعلني أحلّ هذه المعضلة عبر نموّ خلاياي الدماغية المعطلة الآن.

تعبر الخاطرة برقاً وأنا أعوم في العمق البحري.

10

«ومع أنني كنت مدللاً وحرّاً، شبيه كرة يلعب بها الآخرون في أوقات التسلية من بني الإنسان، إلا أنني كنت حيواناً دونياً، سواء في الوجر الضيق الذي خُصّص لي كبيت، أو من خلال تلك السلسلة اللعينة التي أُربط بها في المساءات ونوعية الطعام والفضلات، إلى

الصرخات والشتائم التي تدوي في سمعي حين تبدأ حماقاتي اللاتُحصى. كنت حيواناً زاحفاً على أربع، وكانوا الآخرين الطّوال والعمالقة المنتصبين على قائمتين.

غير أنني بإدراك غامض، ومن خلال الفعل المنعكس، والنوع السلالي الموروث، بدأت التأقلم والتعلّم والاستجابة الشرطية، سواء بالمكر والتدليس أو التمسّح والمراوغة».

- لابدّ أنك تلميذ نجيب للعصر الراهن. ابن بارّ له. يدسّ عليك أحد الأصدقاء وهو يراك تنتقل من إنسان إلى آخر، مداعباً وملاعباً ولاحساً ومتمسِّحاً.

«كنت في فضاء الطفولة. في غابة الحرية واللعب وأنا أحتفي بالقادمين إلى المملكة الصغيرة، حيث شيّد صاحبي جمهورية الحرية المشرعة على البحر تحت فضاءات الله الواسعة.

في الليالي كان مستحيلاً اقتراب الغرباء والطفيليين. كنت الحارس أو حامي الحِمى. الأصدقاء الذين ألفوا المملكة كنت أهشّ لهم وأتقدمهم عن بعد. أشمّ رائحتهم وأرحب بهم. يداعبونني ويمسحون رأسي وظهري.

- مرحباً فيديل أيّها الصديق الوفي.

في ليالي السمر وإشعال النيران وصرخات الروح الطلقة تحت عراءات الليل اختزنت رائحتهم في الدم، كما شكّلت في ذاكرتي صورهم. إدراكي الغريزي تآصر مع وجودهم. كنت أعرفهم كأصدقاء شبه حميمين تآلفنا في فضاءات الزمن والتماسّ العضوي وطيوف الرائحة. الآخرون، الغرباء، الدخلاء، كنت أصرع الفضاء بالعواء والهجوم الوحشي منعاً لهم من الاقتراب: كفى. كفى. يقول صاحبي وهو يداعبني.

أصمت على مضض وأنا أهمدر محمر العينين، متوجساً،

مرتاباً من هؤلاء الغرباء، الثقلاء الذين هبطوا علينا على غير ميعاد».

ـ لابأس صاحبي.

أتخاطر معك في السرّ: ليلة وتمضي.

تلتقط إشارة ـ مورس التخاطر، وتهمد.

ينكفئ الذئبي في خلاياك. يهجس المدجّن خائن السلالة: غفرنا الآن!

كان صيفاً طلقاً لاينسى.

أنت ما كنت تدري في أية مملكة نخيم في السنة الأولى تحت تلك السماء المضاءة.

كنا في مملكة صديق قديم عرفته قبل اثنين وعشرين عاماً. الرجل الذي ظلّ وفياً للزمن الماضي.

من مسافة مئة متر لمحني؛ كان يتهادى على الرمل بجلابيته الرمادية؛ بدا لي عن بعد كرجل خارج من الأساطير القديمة بقامته وامتلائه العضوي ووثوق جسده وهو يدوس الرمل والحصى كأمير لهذا العراء البحري.

رآني وأنا أشرب كأساً من البيرة على شرفة المطعم المطلّ على الجزيرة.

وهو يقترب تداعت الأطياف عبر أجنحة النوارس التي تعبر المحيط وتنخطف فوق اللجّ بألعابها البحرية.

خلال هذه الأطياف المومضة كبروق جاءت أزمنة وأحداث وذكريات، أطياف المدن البعيدة عبر سنوات الهجرة والمنافي: غريب هناك. غريب هنا. متى تنتهي غربة الروح المنفية!

كانت الأسئلة تتوالى في الأعماق المشطورة والمشظاة: أن تكون هناك، وتكون هنا، أو تكون في مكان آخر وزمان آخر، وأنت لاتكاد تعرف أين تكون، وكيف، بعد أن هويت سهواً في هذا العالم الغريب، وأنا أكذب على نفسي والآخرين عبر التواطؤات اليومية والخدائع والتعلل بمستقبل الأزمنة ووهم الأيام السعيدة، مبحراً في زورق لا يقودني سوى إلى مرافئ موتي القادم، لحظة سقطتُ من رحم أمي التي ماتت بالأمس وتركتني وحيداً.

رغبت أن أسألها في لحظة الوداع وهي مجللة بالأبيض داخل تابوتها، وأنا أبكيها مودّعاً، على عتبة غرفتها الرطبة: لماذا؟ بينما الهواء تجرحه الأصداء: سبحان من قهر عباده بالموت. لكنني قلت وأنا مبلل بالدمع والغياب: سامحيني. ما كان خطئي لكنها حكاية الدنيا التي تروينا وتجرفنا في تيارها العاتي.

في غمرة هذه التداعيات انتصب أمامي على الشرفة. وبصوت طفولي حميم اندفع وهو يعانقني: أهلاً. أهلاً. نوّرت البحر بعد غياب طويل.

- يبدو أن الإنسان يعود أخيراً إلى مهد طفولته.

- لكن الغربة قاسية يا صاحبي. ولا أحلى من بلادنا والبحر.

- نولد هنا ثم نهاجر لكننا نعود لنموت هنا بين أسلافنا في النهاية.

كان حوارنا ودوداً ودافئاً، استُعيدت عبره ذكريات قديمة خيّل إلي أن الزمن عفا عليها.

وأنا أتملاه استعدتُ في لحظة وامضة زمن الغرارة القديم. أزمنة الحلم والرغبة الكامنة والمعلنة لتغيير العالم. أزمنة الفتوّة والعواصف قبل أن ننكسر وتعصف بنا الرياح لنتشتت ونُذرى عبر بقاع الأرض. هو الذي ظلّ هنا راسخاً بجذوره في أرض الآباء والأجداد، وأنا الذي اقتُلعت جذوري وحملتها الأمواج بعيداً نحو المنافي الغريبة.

هنا فوق هذا المطلّ البحري توطّد كفلّاح عنيد وفظّ، مرابعاً في الأرض مع أسرته: أبيه وأمه وأخوته وأخواته. عملوا في أراضي الإقطاع على مدى ثلاثين عاماً، واحتازوا نصف الأرض ملكاً لهم بعد صراع مع المالك اقترب من حدود الصدام المسلح.

كنت أتملى وجهه الأسمر المليء وشعره الجعد، وقامته السبارطية، وهو يروي لي ما حدث في سنوات المحنة التي عبرتها الأسرة.

ـ لقد هددت المالك بإبادة أسرته لو أخذ حقّنا. هذه الأرض سقيناها بعرقنا على مدى ثلاثين عاماً والآن سنسقيها بالدم إذا ما اقتضى الأمر. خيّل إلي، وأنا أرى متانة بنيانه وشجاعته الوحشية، أنه قادر على هدم جدار إذ يصدمه بكتفيه الصلبين.

ما كان عبثاً أن أطلقوا عليه اسم التريكس. كان سائق تريكس ومع ذلك سأكتشف عبر ليالينا وحواراتنا جوهر الطفل الوديع الراقد في أعماقه. الطفل الودود، عاشق البحر، المفتوح الذراعين والقلب الواسع كالبحر، الرجل الذي إذ تسلم عليه: مرحباً يا علي. فيرد بلازمته: يا ألف وردة عليك يا حبيب.

عملنا معاً في أيام الأحزاب. ما كنا نخشى الصدام في المظاهرات.

أنت تتذكر تلك الأيام، يقول. ما الذي حدث الآن؟ حوّلونا إلى مجموعة حيوانات في محميات نأكل متى أرادوا وننام متى يشاؤون ونستيقظ كما يرغبون ثم نصفق لهم في المناسبات. نحن دمى ولسنا بشراً. والأنكى من هذا أن أحداً لا يجرؤ حتى على الصراخ مع أن البهيمة تصرخ إذ تُجرح أو تؤذى. أما نحن فقد فقدنا حتى القدرة على الصراخ.

في جِماه، حيث بنى غرفة من الحجارة والصفيح غطّاها بالكرتون المضغوط، وحفر بئراً على عمق خمسة أمتار في الرمل يُنزح الماء منه بمضخة يدوية، أقمْنا مخيم ذلك الصيف الأسطوري.

فيما بعد سأسميه حوت المتوسط، وأنا أراه يشق البحر، سابحاً وموغلاً نحو الأعماق باتجاه الشباك وأقفاص الصيد التي يرميها في عرض البحر.

ومع أنه كان يتراءى في مخيلتي نمطاً زورباوياً في لحظات الحرية والعلاقة مع الطبيعة، لكنه كان مسكوناً بالتناقض، والأخلاق الدينية، والمواضعات الاجتماعية، والحدود الفاصلة بين الفردي والجماعي.

وعبر ليالي السهر معاً كان المثقف يصطدم بالعامل الزراعي والفلاح والريفي والصيّاد وعاشق البحر، ذلك المأسور بالبيئة والتوّاق للسفر بعيداً عن البلاد المعادية للحرية والمبادرة الخلّاقة والمطوّقة بميراث التخلف والانحطاط وجراثيم الكراهية. كان مزيجاً مركباً من الوحشي والمدجّن.

- هنا. لا أمل في شيء. شمس تشرق ثم تغيب. حاكم يرحل وآخر يجيء ولا شيء يتغير. الإنسان في بلادنا يشبه البهيمة في نظر الحاكم. قطيع يُساق بأوامر من أعلى. القوّة مسيطرة. لا عقل يعمل ولا حرية. أخي فصيل شرطة ينزل إلى الشارع ويصرخ بمظاهرة وحياتك سترى الناس تبول في سراويلها وتولي هاربة. هذا ميراث الاستعمار ورثوه عنهم. الخوف صار في الدم. ومع ذلك أيام الاستعمار أخي كان البشر يواجهون الرصاص ولا يتراجعون.

بعفوية كان يحكي، كما الطبيعة التي دخلت نسغه، دونما خوف سوى ضميره النقي الرائق كسطح البحر في أوقات هدوئه: أنت تذكر أيام الأحزاب والمظاهرات كيف كنا معاً نواجه ونصطدم ونُجرح ونُعتقل. أزمنة الفتوّة الناهضة لماذا همدت الآن؟ أنت تفهم أكثر مني قُلْ لي: لماذا تحوّلنا إلى ما يشبه قطعان الغنم والماعز والبقر داخل حظائر. ننام متى أرادوا ونستيقظ بمشيئهم. نأكل ما يقدم لنا من خبز أو حشائش أو خضار، حتى ما نزرعه في أراضينا يسرقه

التجار والسماسرة تحت سمع الدولة وبالاشتراك مع لصوصها. ومع ذلك، مثل الغنم، يسوقوننا في المناسبات لنهتف ونتظاهر صارخين: عاشت دولة العمال والفلاحين.

تحت الخيمة المسقوفة بقصب الشيح، قرب بوابة البحر، نشرب العرق حول طاولة صغيرة صنعها من خشب البحر الطافي الذي التقطه عن الشط أو حمله من عرض البحر، وبين أقدامنا يهرول فيديل الصغير الذي أحبّه، لكنه كان يتوجس من ملامسته أو لحس قدميه، لا كرهاً به إنما لنجاسته، كحيوان ملعون أو ممسوخ في التعازيم الدينية عبر أزمنة الشرّ القديمة، كما يتخيل.

ـ أخي. هذا الممسوخ في الزمن القديم والذي كان بشراً ربما، يصرخ إذا أذيته. نحن كبشر الآن لا نصرخ حتى ولو هتكوا أعراضنا. اشرح لي هذه الحالة!

وهو في زهرة انتشائه كان يواصل أفكاره حول التحوّلات، والموت الداخلي، والخنوع، والرعب المستوطن لخلايا البشر.

في تلك الأوقات السرّية من الليل، وحولنا العراء والريح الناعمة وهسيس الموج في مدّه وجزره، كان يفاجئني بهذه الإشراقات وهو تحت مظلة من الكمد والحزن الغائمين في عينيه وجبهته المغضنة ووجهه الناضح بالغضب.

ما كانت لدي أجوبة محدّدة وشافية على أسئلته. هذه الأسئلة والأحوال ترمضني. في الأعماق كنت هارباً منها. أشيح عنها لأن مكان وزمان سياقها ليس هنا.

منذ زمن بعيد، قبل الهجرة التي أوغلت فيها، خيل إلى أنني تخلّيت عن الكثير من الهموم الكبرى، وعن الأفكار الخرقاء حول الرغبة في تغيير العالم والكون المحيط بي.

لابد أنني قلت لنفسي وأنا أصعد سفينة منفاي: دعك من تلك

الحماقات. غيِّر بوصلة حياتك واتجه مع رياح روحك داخل زمانك الداخلي.

في الأعماق كان هناك توق للراحة، والنسيان، والكسل، واللاإهتمام سوى بالبحر والرمل والفضاء والصيد، والعزلة الخلّاقة والحرّة، بعيداً عن الكوابيس والضجر والثقل المادي والفكري المخيم من ظلال الآخر.

حين أستلقي على الرمل الحار، تحت أشعة الشمس، كانت الصور القديمة تظهر وتغيب كبروق عبر الدوائر القزحية على شاشة عيني المغمضة. كنت أطردها بوعي اليقظة صارخاً: ابتعدي. لا أريد أن أقع فريسة الحنين للماضي. كنت أكره الماضي. ارتساماته السوداء تبدو لي فضاءات غفلة طفولية مخدوعة أنزع إلى التبرئة منها.

ـ لابدّ أنك وقعت سهواً في هذا العالم. قال الآخر. قريني الذي يصطاد على حافة الصخرة المشرفة على الدوّار الغربي من الجزيرة في مواجهة أفق البحر اللانهائي.

ـ هنا كان ينبغي أن أحيا ثم أموت في هذا اللجّ البحري.

كعادته كبا «علي البحري» فوق كرسيه القماشي الهزّاز وراح يشخر. أيقظته فتدهده نحو غرفته الكرتونية وهو يلوّح بلازمته: مئة وردة عليك يا صاحبي. تصبح على خير.

11

هي حكاية على ما يبدو أو سيرة، يرويها صديق حيّ عن صديق غائب. حكاية شجن ومراثي كما في حكاياتنا القديمة.

لعل الزمن، زماننا، نحن في هذا الشرق، يعيد دورانه اللولبي حول ذاته على نحو استنساخي.

وهي في الآن ذاته حكاية بوح وفيض داخلي عما غبر في الأزمنة. وقائع حقيقية ومتخيلة كان من الممكن أن تطوى في صحارى الأيام، كما آلاف الحكايات التي تهوي كأوراق الخريف وتموت في أودية النسيان. حكاية عن الزمن الغرّ والغفلة، والتوق السحري للطفولة المفقودة، قبل قدوم عصور الهلاك. ولكن من الذي أودى بنا إلى هذا المصير المهلك!

أنت كنت مغروراً وجامحاً في سنوات فتوّتك؛ تهاجم وتعوي وتجرح مدافعاً عن مملكتك بالنواجذ والصرخة الداوية مزدهياً بفتوتك وفضاءات الحرية. ومثلك كنت في الأزمنة المنقرضة، المطوية الآن في غلاف الزمن، جامحاً ومجنوناً ومشبوب الروح، مفعماً بحماسة الرؤى السحرية حول جمهورية العدالة والحرية والشمس الساطعة. أخاطب بنوع من الهلوسة فيديل النائم بين قدمي.

ـ يا للأحمقين في أزمنة الغدر التي ستفاجئنا!

سندرك جهالتنا الغرّيرة وسذاجتنا بعد فوات الأوان. أنت الذي اغتالوك غدراً في ذلك الغسق العسكري، وأنا المرشح للاغتيال في أي وقت غافل.

ما فائدة جملة نرميها على النحو التالي: كم كنّا بلهاء ومغفلين في تلك الأزمنة في الوقت الذي كنّا فيه أنقياء كالينابيع المتفجرة من الصخور!

من الأفضل إيقاف هذا الهذر. تيارات الذاكرة المؤسّية. هذا الهذيان المورّث للكآبة، والمصدّع لرأسك الذي استراح أخيراً.

في الليالي تأتي الكوابيس غبّ موتك. أحاسيس التأنيب. الشعور الداخلي بصرخة الثأر وغياب الأسلحة. أكثر من حلم رأيتك فيه. حيّ كما الزمان القديم.

«ها أنت مع عاصي معصوب الجبهة. عصابتك بيضاء وهو يتقدمك حاملاً حقيبة برتقالية أهجس بأنها تحوي قنابل يدوية وأدوية لكنه يبدو كأنه في طريقه إلى الصيد نحو السهب الخضراء. أراك مهرولاً وعلى ظهرك بندقية. في الحلم أتساءل: لم تتبع عاصي وأنا لست معك؟

من فضاء ضبابي غريب يُسمع صوت أشبه برنين ناقوس. صدى يأتي من بحر أو صحراء أو متاهة: أنتم يا من هناك. ليس هذا أوان الصيد!

داخل الحلم أهجس: أنا الصياد لا هو. لماذا أنا أعزل بلا بندقية؟ ولم البندقية مع فيديل؟ تراني من خلال الضباب البارد (أتذكر صباحات الصيد الندية والباردة في السهول الشرقية) فتهرع نحوي. أداعبك جاسّاً عصابة الجرح.

ـ أيّها الأحمق. هيّا إلى الحمّام. أنت وسخ ويجب أن أغسلك. إذ ندخل الحمّام تتحول بين يدي إلى طفل. ما عدت كلباً. طفل جميل عمره خمس سنوات تشبه آدم المدلل إبان طفولته (قبل موتك كان اسمك يختلط باسم آدم الذي أفسدك بالدلال واللعب؛ هو الذي سيثأر لك بعد أقل من عام من اغتيالك بأسلوبه الاحتفالي الرمزي، الجميل والوحشي في آن). أرفعك بين ذراعي تحت رشاش الماء. بغتة ينفجر الدم من مسامّ جسدك راشماً الجدران وثيابي.

أستيقظ هلعاً، مبللاً بالعرق».

صباح ممطر. الأعشاب وشجر الحديقة تغتسل بمطر الشتاء.

12

بعد غيابك عبرتني الفصول والأصياف البحرية. في مجراتها الأرضية والسماوية دفنت أحزاني، لكن رغبة الثأر ظلّت كجمرة

غطاها الرماد هناك في الأعماق القصية التي تؤرقها أحلام اليقظة والنوم. حاولت تطهيرها بالصيد البحري والقراءات والصداقات والخمر نزوعاً نحو النسيان.

على مدى صيفين أوغلت في متاهة العزلة الروحية. ما يمكن تسميته بالصفاء الداخلي. تمرينات التطهير لبؤر العفن الموروثة والمكتسبة. بدا الأمر حالة تشبه اليوغا والتأمل. محاولات للعودة إلى النقاء الأول في أزمنة الطفولة. استغراقات نحو جواهر الأشياء والعالم المحيط.

بدا الفقدان كصدمة روحية، من خلاله تشظّت أسئلة بعدد النجوم التي أراقبها وأتأملها في الليالي المعتمة. وكان السؤال اللا يُجاب عليه: ما الذي رماني هنا في هذه الأصقاع المنسية الغبيّة والمتوحشة؟

وفي لحظات الاستغراق السرية، وأنا أستلقي على الرمل، كنت أشعر كأنني شيء فائض في الزمن. تغزوني أفكار شيطانية أو رحمانية حول معنى وجودي في العالم: ما الذي سيتغير في العالم لو لم أكن موجوداً؟ لا شك أن الكرة الأرضية لن تتوقف عن الدوران وستظل الشمس تشرق وتغرب والزمن سيواصل ألوهيته السرمدية. وحده، علي البحري، قبل موته على ذلك النحو المباغت، ربما كان يعرف معنى الحياة، هو الذي، بدا في ذلك الصيف البهي، غير قابل للموت من خلال عضويته الصلبة والفتية، والمحتفلة ببهجة الحياة ونهمها.

ـ الحياة جميلة رغم الشقاءات والصدمات. نحن نوهبها مرة واحدة وعلينا أن نحياها بكل ذرّة من الزمن.

حين أسأله في السهرات عن غدر الموت كان يجلجل بضحكة تخرج من بطنه وعينيه: هذا قدر من الله تعالى. متى يأتي لا يستشيرنا. المهم هذه الوردة التي تتألق فينا. حبّ البحر والصيد

والنساء والسهرات الحلوة. بيني وبينك آخر شيء على الإنسان التفكير فيه هو الموت.

أسأله: أنت هل تعتقد أنك ستموت في عزّ شبابك مثلاً؟

ـ هذه مشيئة الله. لكل إنسان أجل محتوم. الموت غفوة طويلة، والحياة يقظة من الموت. هكذا كان يفلسف الحياة ببساطة.

حين يغادر نحو غرفته الكرتونية أنهض نحو الساحل الرملي. أسير مراقباً مدّ البحر والنهر الضوئي اللامع لانعكاس القمر فوق المحيط. وأنا أرى سمكة تلمع عبر موجة عابرة تلمع فكرة تقول بأن ذلك الإنسان العفوي يدرك الحياة والعالم أعمق مني وأكثر تلقائية.

كيف تكون، أو هل من الممكن، أن تعود طفلاً باراً للطبيعة. إنساناً بريئاً في العالم. مندهشاً بالأشياء. مولعاً بالغرابة وحسّ الفطرة الأولى. كما يبدو ذلك الرجل المفطور الذي ينام الآن هناك ويحلم كما الأطفال.

كيف يمكن، بعد كل الاضطراب والخراب والتلوّث والوحشية، العودة إلى ينابيع الطفولة الأولى؟ وأنت الذي تعرف تاريخ الأزمنة التي طويت الآن في أرشيف الأيام. تاريخ الكفاح والصراع والقتلى ودمار الأوطان، كما يعرفه الآخرون من القبيلة الموشكة على الانقراض. كيف تحلم باتجاه نقاوة الروح؟

الروح التي ماتت في أعماق البشر الذين يشبهون البشر.

يقول التريكس قبل غدر الزمن الاحتشائي: حتى فيديل يعض ويعوي إذا ما أوذي أو أهين أما هم فيبولون في سراويلهم رعباً. فأية مهزلة يا صاحبي!

ـ لكن إذا انكسرتَ فسيظلم العالم.

ـ ليظلم. إلى الجحيم هذا العالم الهلامي.

يحتدم الحوار، فيما مضى؟ والآن.

قبيلة ما قبل الانقراض، القبيلة المؤجلة في النسق الأخير للإعدام. هل هي الرؤيا أم الواقع؟

ها أنت تتخيلهم يعبرون أنفاق الظلمة. كلما عبروا شبراً في النفق أشعلوا شمعة. يصدرون صرخة لمن يتقدمون خلفهم. نتقدم والظهور محنية والعيون تضيء كما برق. خلفنا الطلقات والتوابيت وصراخ المعتقلين والاغتصاب وبازارات النهب والدماء. دماء الشهداء فوق التلال والأودية حيث تُركوا هناك للنسور والرياح ووحوش البراري. الشهداء المجّانيون، الفدائيون، الأطفال الأبرياء، المأخوذون بسحر الجنة والوطن المفدّى:

بلادي. بلادي. لك دمي وفؤادي.

على جثثهم تقيم الذئاب مآدبها ونهبها وطقوس قصفها ومافياتها المدججة بالماغنوم، وأثداء النساء وأوراق البنكنوت. الذئاب البشرية التي تعيث فساداً في الخلايا وتخرب الكريات البيضاء في مزرعة الجسد.

ونحن ببطء السلاحف والحلزونات وجرحى الحروب، نتقدم في أنفاق الخراب. نشعل الشموع الباهتة في عتم الظلمات. صارخين في العراء الموحش: لا. لا. أبداً لن يكون ذلك.

نصرخ وحيدين، بصوت خافت، لكنه مديد في أعماق النفق الطويل المعتم. نحن السلالة التي ستلفظ أنفاسها في نهاية النفق مع الضوء الأول للفجر.

هذا ما كنّا قادرين على فعله الآن: إيقاد بعض الشموع في أنفاق الظلمة.

ـ يا له من عمل تافه وصغير. يقول القرين اللامرئي. يهجس متهكماً: عزلة. نقاء روحي. تطهير. فطرة وطفولة. أية هراءات للتعويض واللجوء إلى بوابات البحر. وإذ يحتدم الحوار أرفع

صوتي في وجهه: أنت ترى. الأفواه مكمومة والأرجل مقيدة بالأصفاد. الجوع والعري والرعب والمطاردة. عراة ومجروحون وتحت المراقبة. نحن العزّل من أي سلاح سوى الأجساد التي تتلقى التعذيب، بينما فصائل الإعدام مدجّجة. قل لي ما العمل؟ أين العدالة في هذا المشهد اللعين يا قريني الدونكيشوت؟

هي الحوارات اللاوجدوى منها. الأسئلة التي لايُجاب عليها في الزمن المغلق والمُصادر.

- أنتم أوصلتم هذا الراهن إلى المضائق.

كانت الاتهامات جاهزة أبداً لتسويغ الفساد وتعميمه. ما كان أحد بريئاً في انفجارات التاريخ. الضحية والجلّاد كانا هناك في المرايا المهشمة، كأنهما مسؤولان عن خراب العصور، حين يبدأ زمن التزوير ويؤرَّخ للخراب.

13

دعنا نهرب من هذه الترّهات الممضة. نمضي باتجاه البراري والأودية. معاً تحت الفضاءات الندية والمضاءة، عبر هذه الأشعة الأثيرية للطبيعة. نُفغم برائحة الأرض وندى الأعشاب وأصوات الطيور وهي تملأ الدنيا بصداحها. هي ذي مسيرتنا مع الغروب. أنت الواثب أمامي على الدروب التي سلكناها مئات المرّات بين الصخور والأدغال. مموّج بالنشوة وشهوات الصيد وغبطة الحرية وزهو فتوّتك العارمة. أنت وأنا، الصديقان المولعان بهذا البهاء، والشمس الآن على صَدع المغيب.

على مهل نخبّ بين الشعاب الصخرية والمنحدرات المبللة بالمطر والوحل. مفعمان بتوق سرّي. بشوق غامض يسري في خلايا الدم الحارّة رغبة عصية على الاكتناه تمور في مسارات الدم وتوق

الروح. رموز وإشارات لعلها تنتمي إلى أزمنة بدائية موغلة في القدم. أزمنة سلالتنا المشتركة هناك في الأدغال والكهوف قبل ألف مليون عام. ها نحن ننحدر في الهضاب الشرقية التي تعرف دروبها حتى في الليالي المعتمة.

قبل الوصول إلى مواقع صيد السمّان القادم للمبيت مع الغروب، توغل بين الأحراش مطارداً روائح وآثار دجاج الأرض والشحارير الباحثة بين دبال أوراق السنديان والبلوط عن الديدان.

بعيداً عني تنفر الطيور وأنت تجمح في إثرها. أصرخ دون جدوى: فيديل. عُدْ. على مهلك. انتظر. تتوغل أكثر فأنتزق. آلهتك. سماواتك. ولكْ حيوان أرجع أنا قادم. لا أستطيع اللحاق بك. ولا حياة لمن تنادي. اخرس. أطرش. لاتسمع سوى غريزتك الجامحة...

شتائم الأرض كلّها كانت عاجزة عن وقف جنون الدم الوراثي الذي اجتاح عضويتك المشبوقة.

ـ أي خراء هذا الصيد مع كلب مجنون يصطاد كما يرغب!

تدريب الصيد، عبر الطفولة، كان بلا معنى. ذهب الآن أدراج الرياح والنزوات الوحشية. مع بداية المغيب، قبل عبور طيور السمان والشحارير إلى أحراشها الكثيفة لتنام، ألِجُ الكمين المظلل بشجيرات السنديان والبطم. أتحرر من عدّة الصيد سوى البندقية الملقّمة. أراقب السماء الغائمة والمسار الفضائي لعبور الطيور القادمة من الغرب.

في حميا اللهفة والتوقع وجيشان فرح الصيد أشعل سيجارة. بغتة تلوح صاعداً المنحدر وأنت على شفا الإنهاك.

ـ أمعقول هذا؟ لا أكاد أصدق ما أرى.

بين شدقيك دجاجة أرض. تندفع نحوي وتلقيها بين قدمي مزهواً وأنت تلهث.

طائر جريح. دمه مايزال ينزف وقلبه ينبض.

لابدّ أن صياداً أصابه وضاع عنه.

ـ أي بطل أنت! لقد غفرت لك أيها الأحمق. أضمك وأداعبك: أنت ما كنت تلعب إذن في إثر الطيور! مكافأة أخرج لك من حقيبة الصيد قطعة بسكويت: خذ أيّها الذئب الجميل الآن.

فرادى ومثنى تعبر طيور السمّان من الأفق الغربي فوق ذرى الأشجار. أنت في الفسحة أمام الكمين وعيناك لا تغادران السماء في اللحظة التي تتأهب فيها لسماع صوت الطلقات.

طاق. طاق. دويّ أجوف وخائب في فضاء رمادي. الطيور المذعورة تعبر عالية بعيدة عن مرمى الطلقات. بعد خمس ـ ست طلقات يُصاب طائر. يهوي من الأعالي مختل التوازن، مؤرجَحاً في الفضاء، يدور مع الريح ثم يرتطم بالدغل كما حجر.

عيوننا، أنت وأنا ترصده. فَرِحان معاً بشهوة الانتصار. وثباتك فوق الصخور باتجاه الدغل تتماثل مع الطيران. قبل تلقيم البندقية بالطلقات تعود وهو مدلّى بين شدقيك نازفاً.

ـ براڤو فيديل. أنت الآن أمير الغابات بلا منازع.

في رهج الصيد المحموم، وأسراب الطيور تتواكب بعد المغيب والطلقات تدوي في الفضاء، اكفهرّ الغسق. من أفق البحر بدأ وميض البرق، تلاه الرعد العنيف. مع القطرات الأولى تُهرع إلى الكمين. كنيف من الأغصان والأوراق بين صخرتين. تندسّ بين قدمي وفي أحضاني. أطوّقك كما طفل وفوقنا المظلة والمِمْطَر. متضامّان تحت الأيكة المثقوبة والقطرات على حوافّنا ونحن نرتعش.

لابدّ أننا ندفع الآن ثمن تأخير العودة جرّاء لهفة وشبق الصيد.

كانت الوديان والسفوح تضاء بوميض يخطف الأبصار. تحتنا وفوقنا راحت الأرض والسماء تتهدمان. ساكنان، فزعان، وحيدان.

هنا في العراء الغاضب تحت هذا الفيض السماوي، بينما الظلام يزحف ويتكاثف وأنت ترتعش بين أحضاني، رحت أجدّف على أول من علّمني الصيد قبل ربع قرن. في ذلك الزمن كنت فتياً ومغامراً يصحبني جدي والصيادون إلى السهوب والأودية. كنت أشاهدهم كفتى وهم يطلقون النار على الطيور والأرانب بنشوة ووحشية. أتذكر أن جدي هو الذي كان يأخذني معه ليغرس في أعماقي بذرة الصيد الموروثة.

ـ لن تكون رجلاً حقيقياً إذا لم تكن صيّاداً.

وكان يضيف: نحن العرب الصيد مزروع في دمنا منذ الجاهلية.

الآن تعبر تلك الطيوف فيما يشبه هذه البروق. فيما بعد ورث الوالد جرثوم الصيد اللعين فانتقل إلي بعد موته.

لا الجد ولا الأب شرح كيف تخرج من ورطة ملعونة كهذه التي وقعت فيها.

ما دمت صياداً عليك مواجهة مصيرك بنفسك. لأمر لم يُكتنه، وأنا مع فيديل تحت الأيكة البليلة، لم يداهمني الفزع. وأنا أُنصت لرنين المطر على أوراق الشجر عبرتني حالة عبثية غريبة. نوع من اللامبالاة والسلام الداخلي، ونحن نستمتع بهذه الموسيقى العذبة. عزف وحشي وبدائي لرنين المطر فوق الأغصان والحصى والصخور. أنوار سحرية ومفزعة تخلع القلب والروح تدمجك بالكون فتعود إلى الهيولى الأولى للعناصر. أطياف طفولة زمن مضى. الزمن الذي كنت فيه عارياً داخل الكهوف والغابات قبل أكثر من مئة مليون عام. زمن ما قبل الانفصال بيننا نحن الحيوانين المتوحشين والبريئين المتضامين الآن ونحن نرتعد جرّاء انبهاق ورعدة الصاعقة التي هدمت الأرض قربنا. ها نحن نتحد ونتواشج كما في العصور القديمة. الأخوان الحميمان قبل بدء الانشطار

والتحوّل الكوني وبداية الأسماء، زمن كان الصوت والصدى هما اللغة.

هي ذي الطبيعة، الأم الحنون، المجنونة والمتوحشة، تصهرنا في لحظة رقصها الأهوج واللامعقول. تعيدنا إلى رحمها، وتغمرنا كما الشجر والطير والصخر في مياهها الدفّاقة. تطهّرنا وتجلونا بهذا الوميض والرعد والمطر السماوي فنتساوى بالأرض والوحل الذي ولدنا منه.

داخل هذا الكابوس السحري، والوجيب المضطرب للعناصر، وعبر هذه الاختلاطات السريالية، تدوي الأودية بأصوات الثعالب والضباع والخنازير البريّة.

- ما عاد ينقصنا سوى هذا!

الآن عليك أن تخرج من الأطياف إلى الواقع.

والآن عليك أن تكون الصياد الحقيقي الذي يواجه الخطر لتكون رجلاً كما قال ذلك الجدّ النابه.

- لابد أن تلك الوحوش اللعينة تشمّمت الروائح. قلت في نفسي.

بدا واضحاً من عواءاتها، وهدير أصواتها أنها تقترب منّا.

كان البرق والرعد متواصلين لكن المطر خفّ تهطاله. خرجنا من الكمين لنواجه عدواً آخر في ظلمة حالكة. يلتحم فيديل بي ويتماسّ. لابد أنه أدرك الخطر.

- هي ذي لحظة الصيّاد القاتل. هجست وأنا أبدّل خرطوش البندقية بطلقات الرصاص.

- لاتخف يا صاحبي. هيّا! قلت الجملة وأنا تحت الارتعاد الدموي واضطراب الأعصاب.

خرجنا من الدغل وانحدرنا حذِرين عبر السفوح الموحلة والصخرية.

السماء والأرض سديم من العتم ونحن نتقدم على ضوء البرق.

ثمة ارتعاش في الدم، بينما الأصوات الوحشية تقترب؛ في مواجهة ذلك تتولد طاقة داخلية، تنمو هناك في أعماق الروح المضيئة لهذا الظلام الوحشي. كان علينا العثور على آثار الدرب المؤدية إلى البلدة. في غمرة التحضير للصيد تذكرت أنني نسيت مصباح الليل اليدوي في البيت.

أكثر فأكثر بدأ يقترب العواء. طلقتان باتجاه الأصوات. دوّت الوديان فردّدت الصخور الأصداء. استُرِدَّت روحانا الهلعتان لوهلة.

بقوّة تتجاوز طاقة الجسد كنا نهبط المنحدرات الموحلة والسفوح الصخرية، عبر الدغل المبلل بقطرات المطر والرياح التي تسفعنا.

بين أشجار الزيتون والعرعار القريبة من الشِّعب الضيق الذي بدأنا نتلمس آثاره ونقتفي بعض علاماته، طوّقتنا عواءات الوحوش.

الهدير المفترس كان يأتي من الشمال والغرب، لكأن المفرزة انقسمت إلى جماعات، إذ استفزتها الطلقات النارية.

بدا واضحاً الآن أننا في دائرة الخطر. واصلت إطلاق النار.

كان فيديل يلوب حولي مدركاً مداهمة الخطر.

لمعت في الذاكرة عبر أقل من ثانية أنني طوّقت في زمن غابر، في ثكنة عسكرية، وكنت تحت الرمي داخل غرفة من الصفيح مع مجموعة من الجنود. وآنذاك نجوت بأعجوبة، ولأمر لا أدرك كنهه الآن، ما كنت خائفاً في ذلك الحصار المنبئ بالموت.

- لاتخف يا صاحبي. ليسوا أكثر من حفنة ضباع تقتات على الجيف وسننال منها.

تلمّست جناد الخرطوش وحقيبة الصيد. تأكدت أن هناك احتياطاً استراتيجياً من الطلقات الرصاصية.

ـ نحن أقوياء ولن ينالوا منا.

واجهتنا صخرة ضخمة. تمترسنا وراءها.

تحت انبهاق البرق الراعد بدأت المعركة.

في الأعماق كنت مستثاراً بطاقة غريبة. قوّة رفض الموت أشعلت الوديان والسفوح والهضاب. كنت أرمي في العتم عبر قوس متحرك من الشمال والغرب والجنوب.

انزاح الفزع، لكن الأعصاب كانت في أقصى توتراتها. كأرنب مذعور كان الكلب مطوّقاً بين ساقيّ، لكن المعركة هيّجته حين سمع دويّ النار، وأصوات عواءات جريحة هاربة فاندفع يعوي بنشوة بين الفزع والنصر.

استمرت المعركة ما يقارب الساعة في التوقيت النفسي، وإذ بدأنا نسمع الصرخات البعيدة أدركنا أننا فتحنا ثغرة للنجاة.

ـ لابدّ أننا نلنا منهم.

هجسنا في الظلام ونحن ننحدر عبر الشعاب والأحراج وسواقي الماء.

رُدّت الروح إذ اهتدينا إلى الدرب المؤدية إلى البلدة.

ـ أين أنت أيتها الوحوش الجبانة!

لعل فيديل الأكثر جبناً، والمستبسل على الطيور الجريحة، كان يهجس وهو على مقربة من الدار الآمنة.

14

هي حكاية إذن!

حكاية عن الصداقة والبحر والصيد والمودّة، والموت. حكاية متخيلة عبر استراحة تحت الضوء وظلّ الذاكرة والزمان المفقود. الزمان الذي تحاول عبثاً الإمساك به أو استعادته حتى لا يتلاشى

ويضيع. الزمن الذي يتأبد كإله بينما تعبر داخل ذراته كشعاع يتبدد كما حلم.

في الليلة التالية جاء الحلم الموازي والمتخاطر. حلم المدينة المطوّقة بالنيران برّاً وبحراً وجوّاً. والعدو يمطرنا بالقذائف وجميع صنوف الأسلحة. وكنا، كما في الغابة، في المربع الأخير الشبيه بمساحة قبر. هناك في الحلم الماضي قاتلنا بالروح إيّاها، كما قاتلنا هناك في ظلمات الوديان. قاتلنا بالطاقة الرافضة للموت: لن يدخلوا بيروت ولن يمرّوا إلا على أجسادنا مادامت الأسلحة ملك القبضات.

أمواج من الهذيانات. تيّارات تعبر المحيط في ليالي الأرق. تفتش في السجلات المنسية والقديمة عن تاريخك ـ تاريخهم. عن المواقع الضوئية التي تشير إلى الصعود والزمان الأبيض.

من الأفضل إيصاد هذه البوابات. يهجس القرين المستلقي على الرمل في حرّ الهاجرة.

ـ حياتك كلها ضاعت سُدى في البحث عن محارة فيها لؤلؤة. أوقف غوصك اللامجدي.

أغمض عيني. تتراءى على الشاشة طيوف حمراء وزرقاء وبنفسجية. ينقسم الزمن فترتسم شواطئ فتيات يستحممن بثياب البحر أو يتشمسن فوق رمال ذهبية. زوارق شراعية ومظلات على حافة المياه. أطفال عراة يجرفون الرمال الرطبة داخل علب من البلاستيك ثم يكومونها كجبال صغيرة. أطفال يمرحون بزمن براءتهم الأولى. يهدمون الجبال الرملية ثم يعيدون تشكيلها كحيوانات أو طيور أو قلاع لا يلبث مدّ البحر عبر مويجاته أن يجرفها مخرّباً ما شيّدوه من صور وهمهم وتخيلاتهم. ينكسر الزمن المتراءى عبر الطيوف فترحل المدن التي عبرت. الأحلام

والحصارات والبحث عن اللآلئ المضاعة التي صاغها الوهم، تتبدد كضباب في فجر ربيعي.

15

سيكون صيفاً لا ينسى. ستأتي أصياف أخرى وتخييمات فيما بعد، لكن ذلك الصيف العذب والحميم سيستعاد في الذاكرة على مدى طويل. سيُهجر المكان بعد موت صديقي حوت البحر على ذلك النحو المباغت، غبّ خروجه من الماء واشتياقه إليه. لقد طعنه البحر بعد غياب عام في مدينة الدمّام السعودية حيث كان يعمل في حقول النفط.

قبل توقف قلبه عن النبض، أبحر بي في ذلك الصيف إلى أعماق المحيط المبهج مع صاحبه أبو العبد الأروادي، لصيد أسماك الإنتياس والبلميدا الضخمة.

كانت الرحلة الليلية حلماً قديماً من أحلام الطفولة لصبي صغير ما كان يعرف من البحر سوى الشواطئ الرملية.

كان على ذلك الصبي السؤول والفضولي الملحاح، حول زوارق البحر المضاءة في الليل، انتظار أكثر من ثلاثين عاماً لاكتشاف مشهد الصيد الليلي. ذلك المشهد الأسطوري والغامض، والذي كان يطرح الأسئلة حوله ليجيب عليه الوالد أخيراً، الفلّاح، المهتم بزراعة الأرض وخضارها: هؤلاء هم الصيّادون الأرواديون. ولدوا في جزيرتهم البحرية كما السمك في الماء ومن الصيد يعيشون.

وحين يسأل الصبي اللجوج: لماذا نحن لسنا صيّادين؟ كان الوالد يجيب: نحن فلّاحون ومزارعون، حياتنا من الأرض، أما الأرواديون فأرضهم البحر.

ـ لكننا على حافة البحر ونحن لا نكاد نعرفه!

ـ البحر غامض ومجهول. رزقنا يأتي مما نزرعه في أراضينا. أما هم فرزقهم السمك ومخلوقات البحر. هم جزيرة أما نحن فسهول وجبال. هكذا قسم الله الأرزاق لعباده في البرّ والبحر.

كانت أجوبة الأب منطقية في السياق الواقعي، لكنها بدت مشوّشة للخيال الطفولي. خيال الطيران والإبحار نحو المجهول والغامض.

بعد أكثر من نصف قرن من ذلك الزمن النائم في أعماق خيال الصبي الجموح، سيكتشف في رحلة البحر الأسطورية مع علي التريكس، حوت البحر، حقيقة ومغامرة الصيد الليلي على ضوء الفوانيس في الأعماق الزرقاء الباعثة على الرهبة.

في الثامنة مساء، كان لنش الصيد يرسو قريباً من الشاطئ. لقد جهّزنا العشاء والمشروبات وأدوات الشاي والقهوة وترمس الثلج ومصباح الغاز والبطانيات والسترات الواقية من البرد وصقيع الليل البحري.

إنني أتذكر الآن كيف نقل علي الأمتعة إلى الزورق الراسي على بعد خمسين متراً من الشاطئ، ثم عاد ليحملني على ظهره كيلا تتبلل ثيابي بالماء.

كنت مبلبلاً بالخجل وأنا مشبوح كطفل على ظهره الصلب العاري. وحين احتججت بأنني سبّاح وصيّاد وبإمكاني قطع المسافة بسهولة قال بضحكته الطفولية: أعرف ذلك. إنما هذه للذكرى الأخوية وليس في الأمر ما يُخجل. أنت وردتنا وفخرنا. واستطرد إذ أدرك حَرَجي: الأمر وما فيه حتى نسرع. لا لزوم لأن تخلع ثيابك أو تتبلل.

أبحرنا في ليل بلا قمر، تحت ضوء النجوم، وحين وازينا جزيرة النمل، انعطفنا نحو اليسار والغرب. في عرض البحر سألني أبو العبد القبطان إن كنت عشت التجربة سابقاً فنفيت.

وسأله علي عن معنى السؤال، فقال بأنه يخشى أن أُصاب بدوار البحر.

وبوثوقية ردّ عليه: لا. أبو العبد. أبو المجد صياد ماهر وسبّاح من طراز يعجبك. أي دوار بحر تتحدث عنه يا رجل!

في أعماقي ضحكت من هذا المديح الذي لا أستحقه. أوغلنا في المياه العميقة تحت ضوء المصباح المضاء في مقدّمة الزورق.

امحّى الشاطئ في العتم. قُرى الجبال البعيدة لاحت مضاءة، مصابيحها كانت تُرى كالنجوم.

وأنا على السطح الخلفي للزورق أحسست أننا الآن في التيه. لا شيء سوى الماء الشبيه بالحبر الأسود والأعماق الرهيبة، والسماء المنقطة بالكواكب فوقنا.

أتذكر الآن المسّ السحري الذي اخترقني في ذلك الليل الأسطوري.

من أين هبطت عليَّ فكرة أن الخليقة ولدت من هذا الأوقيانوس المعتم، حين كانت الدنيا غمراً وعماء وجناح الله يرف فوق المياه. ثم من أين جاءتني أساطير السومريين والبابليين عن خلق الكون الأول حين كان البحر هو البدء الأزلي المكوّن من السماء والأرض؟ وكيف فصل أنليل إله الريح والعواصف السماء عن الأرض ففاز أبوه «آن» بالسماء، في حين فاز أنليل بأمه الأرض وبدأ بخلق بقية عناصر الكون!

«الربُّ الذي يملك حقاً

هو الذي أُظهر للعيان

الربُّ الذي لا يتبدل في أحكامه «أنليل»

الذي يجلب البذور إلى الأرض ليزرعها

تولّى برعايته فصل السماء عن الأرض

تولّى برعايته فصل الأرض عن السماء».

من ظلمة الماء السومري والفضاء السحري، والمسّ البدائي الموغل في القدم، اجتيحت روحي بهذا النشيد وأنا هناك على سطح السفينة التي تشق عباب البحر كما في حلم.

إذ بدأ هدير المحرك يخفت قليلاً خمّنت أننا اقتربنا من مواقع الصيد.

قال أبو العبد بأننا الآن على حافة الهور العميق. وأوضح لي صديقي بأن الهور هو صدع بحري عمقه لا يقلّ عن ألفي متر، على حوافه وفيه تستوطن أسماك الإنتياس والبلميدا التي يسميها الصيادون بالوحوش البحرية.

أخيراً أطفئ محرك الزورق في لجّ بداية الخليقة كما خيل إلي، وبدأ قياس الأعماق بخيط ينتهي بكتلة رصاصية تلامس القاع. قال القبطان أبو العبد: الأعماق أربعون قامة وهذا مناسب.

واستطرد: إذا لم نوفّق ننتقل إلى مكان آخر.

أُشعل مصباحا الغاز الجانبيان من جهة الغرب، فأضيئت مساحة لاتزيد عن أربعة أمتار، كان الضوء يتراقص فوقها مخترقاً عمقاً من الماء حوالى نصف متر، بينما الزورق يتقلقل بهدوء تحت ضغط التيارات المائية.

سألت الريّس أبو العبد عن المسافة بيننا وبين الشاطئ فقال بأنها بين ثمانية إلى عشرة أميال بحرية. المسافة بين الشط وجزيرة النمل لا تزيد عن ميل بحري. نحن الآن إذن في نهاية الأفق الذي نراه نهاراً، ونحن نصطاد بالشصوص فوق صخور الجزيرة.

حين بدأ تحضير الخيوط الملتفة حول أسطوانات الفلّين،

وتجهيز الشصوص بطعوم أسماك السردين، هدأ الوجيب الداخلي. انزاح السحر الذي خايلني ونحن نعبر أساطير سومر وبابل، والآن هو ذا ما بعد الخلق والهدوء الكوني يبدأ. لقد أنهى أنليل خلق عناصر الكون، وأسلَمَنا لأزمنة الصيد والحياة والمتعة.

طُعّم خيطان، في نهاية كل منهما صنارتان كبيرتان، ودلّيا في الماء نحو أعماق لا تقل عن خمسين متراً.

في مؤخرة الزورق كان الريس أبو العبد يمسك بخيط، ووسط الزورق الجانبي يمسك علي بالخيط الآخر.

أبو العبد نبّه الحوت البحري: إذا علقت سمكة أعطني خيطك واستلم خيطي. كمحترف أنا أعرف كيف أقودها أكثر منك.

ـ على عيني أبو العبد. المهمّ أن تعلق يا ريّس.

من جهة الجنوب والغرب، ومن بُعدٍ قليل، كانت تلوح مصابيح زوارق الصيادين.

في فسحة مشهد الصيد الأولي، والصيادان يحركان خيطيهما برؤوس الأصابع نحو الأعلى والأسفل، أحسست أنني فائض عن حاجة الصيد.

ـ لو أن هناك خيطاً آخر أمسك به.

لكم رغبت واشتهيت!

وأنا متكئ على جدار الكبين، كنت أراقب المشهد في رحلتي الأولى عبر صيد الأعماق. رحلة حلم الطفولة وهو يتحقق الآن على هذا النحو السحري الآسر.

صاح علي: ضربت يا ريّس أبو العبد!

ـ أعطها الخيط حتى تُنهك أنا قادم.

على النتوء الخشبي النافر في مؤخرة اللنش لفّ أبو العبد

خيطه، ثم وثب نحو الحوت ممسكاً بخيط السمكة التي ابتلعت الطعم.

ـ انتقل واستلم خيطي. قال الريّس.

داهمتني نشوة سرت في أعصاب دمي وأنا أرى الريّس أبو العبد يصارع السمكة.

حواسّي كلها استُنفرت وأنا أحاذيه.

كان واثقاً وهو يرخي الخيط تارة ثم يسحبه بقوة عضلاته وكلية جسده النحيل. بدا مهتاجاً يطفح بالنشوة عبر صراعه معها وهو يلف الخيط النايلوني حول معصمه.

ـ بلميدا من النوع الوسط. قال. هو المتمرّس بقوّة ضغطها وثقلها بين راحته الخشنة الصلبة، السمراء.

حين لمعت تحت الماء المضاء بدت بلون الفضة. ازدهر الحبور في وجهه وعينيه. بدت كماسة بيضاء وسوداء وهي تتموج، قبل أن تنتفض في محاولتها الأخيرة عابرة مجرة يأسها النهائي ونزعها الأخير.

وهي تقترب متلاشية نحو حافة الزورق تناولها من غلاصمها ورفعها كجثة طفل ثم قذف بها إلى السطح الخشبي.

ما كانت ميتة تماماً. بدت متلاشية القوى وهي تنزف دمها الغزير نافضة بذنبها العريض وجسدها الذي يُحتضر.

ـ هذه هي البلميدا التي شاهدتها لأول مرة في حياتي.

كانت سمكة جميلة، سوداء هادئة ومهيبة، مضمخة بالماء والموت والدم، بطول يزيد عن نصف المتر، مرمية هنا بيننا خارج محيطها الكوني.

لنحتفل بعرس الصيد المبارك.

على سطح الزورق بدأتُ بإعداد وليمة صغيرة.

فرشت جريدة قديمة، وزّعت عليها صحوناً من البلاستيك، ورحت أشرّح قطع الخيار والبندورة في الصحون. ومن البرّاد البلاستيكي المغمور بالثلج والماء البارد تناولت زجاجة العرق.

مزجت ثلاثة كؤوس عرق بالماء والثلج، ناولت اثنين للصيادين المنهمكين بحمى الصيد، وبينهما على السطح الخلفي وضعت صحناً مشتركاً من الخضار للمازة.

ـ نخب الصيد.

شربنا بتفاؤل ومتعة. هما كان تركيز حواسّهما موجهاً بكليته عبر الأعصاب الممسكة بالخيط. الريس أبو العبد قال: أبو المجد استمتع بهدوء واشرب راحك كما تشتهي. نحن الآن في المعركة.

مرة أخرى أحسست بالعزلة. كنت خارج معركة الصيد.

عبر حياتي وتكويني الداخلي كنت أرفض الشاهد المحايد والمراقب. انخرطت عبر زمني في حرائق الخذلان والخسارات، ونادراً ما انتصرت في معركة، سوى معارك الأفاعي التي واجهتها منذ الطفولة في البراري، أو الشجارات الأولى مع الفتيان في ملاعب المدرسة وساحات القرية زمن الغرارة والحماسة.

الآن أبدو مُقصى في معركة صيد البلميدا إذن! ولأخفف من ثقل هذا الشعور اندمجت في المناخ الخارجي مع الصيادين المتمرّسين، ومع التوقع المتوتر لاحتمالات الصيد وحركات مدّ الخيوط ولفّها على سطح السفينة، ثم إعادة انحدارها نحو الأعماق.

كانت الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقة حين هبّت رياح خفيفة، وبدأت تيارات سطحية تقلقل الزورق.

ما أذكره آنذاك أنني كنت في الكأس الثانية حين بدأ دوار خفيف لا صلة له بالشراب يلف الرأس، تبعه إحساس باضطراب هضمي يشي بالغثيان.

في تلك اللحظة نتر أبو العبد خيطه فأحسّ بالقوّة الضاغطة بين أنامله.

ـ ها. أبو العبد علقت؟ سأله علي.

ـ أظن. أجاب وهو يرخي الخيط النايلوني الذي راح يغلّ في أعماق الماء، تاركاً للسمكة مداها وهي تنسحب بعيداً، غير مرئية عبر الأعماق.

كان الزورق يتأرجح بدرفلة قوّة التيار الداخلي تحته،

فجأة أحسست بالعزوف عن الشرب والأكل، جرّاء اختلال في الأحشاء، مصحوب برغبة حادّة في الإقياء.

لابد أنه دوار البحر.

ضغطت بكمد وأنا أستند إلى جدار الكبين، في الوقت الذي كان فيه أبو العبد يصارع السمكة التي سيقول عنها فيما بعد، وهي تكاد تسحبه مع الزورق، بأنها من أضخم الأسماك التي يسميها الصيادون «بأم عين»، والتي لا يقل وزنها عن ثمانين كيلوغراماً.

ـ حسناً أنها فلتت أخيراً. كانت أقوى مني. سيقول بين الرغبة والخذلان.

حين بدأت الاضطرابات العنيفة للأحشاء، بدأ العالم يشحب ويزوغ.

من أسفل البطن حتى الحنجرة تموّجت آلام لا تطاق لكأن آلاف السكاكين والأفاعي والأحماض والطحالب والأوحال المرّة تقيم أعراسها في الأحشاء. حاولت التقيؤ وأنا أمدّد نصفي الأعلى فوق الحافة باتجاه الماء فلم أفلح. كانت المعدة شبه خاوية والقلب يكاد يصعد مع الروح.

وأنا أعاني من تلك الصدمة المباغتة، أدركت أن عذوبة الصيد ولّت. لقد خرّب دوار البحر جمالية ليلة الصيد الأسطورية.

انتبه علي للحالة. سحب الخيط وكوّمه فوق السطح واندفع نحوي.

قال أبو العبد: لو أعطيناه نصف كأس من ماء البحر قبل الانطلاق لأخرج المادة الصفراء وما داخ. الله يسامحك يا علي.

بسرعة وضع علي إبريق الشاي على السماور. جلس بمحاذاتي وبدأ يسقيني جرعة جرعة. عبثاً كانت المعدة تستقبل أي سائل.

أحسست أن الروح تصعد مع كل جشأة خاوية، سوى من عصارة مرّة وسائل مخاطي كان يجرح الحنجرة بينما الطبول تقرع في خلايا رأس آخر لا صلة لي به.

خلال أقل من نصف ساعة من هذا الدوار الجهنمي تحوّلتُ إلى كتلة هشة، فارغة، لا إنسانية، تشبه الرمّة التي لاتصلح سوى للقذف إلى البحر لتكون طعاماً رديئاً لأسماك البلميدا.

أنزلني حوت البحر الجميل إلى القمرة داخل الكبين. فرش البطانيات فتمددت في عتم القمرة. غطّاني وهو يهدهدني كطفل: إذا نمت سترتاح. حاول يا صديقي. حاول. أنت قوي.

لم أصرخ ولم أفقد وعيي رغم اجتياحات الألم.

ما أتذكره من خلال ضباب الألم والزوغان إحساسي بالضعف العضوي.

كم كان الجسد هشاً وتافهاً! وكم كانت الروح تنازع بقوة ودافع البقاء! أدركت ذلك حين بدأت قواي تستعاد موجة إثر موجة كما على شاطئ مرمل في نهار صيفي.

استويت ناهضاً، محطم القوى، راشحاً بالعرق وبقايا الدوار. الحلق جاف، مجرّح القصبات جراء محاولات الإقياء. كنت عطشاً كما لو أنني عبرت صحراء من التيه بلا ماء عبر رحلة في الربع الخالي.

خرجت من القمرة إلى السطح كما لو كنت أنهض من قبر. فاجأتني أسماك البلميدا التي اصطيدت خلال غيبوبتي. كانت هناك ممدودة وقد غطت دماؤها الخشب الأبيض فحوّلته إلى أرجوان. بعضها كان مرمى في قفاف الكاوتشوك الأسود. وبينها سمكتان من نوع السفرني والإنتياس من الحجم المتوسط.

ـ كان الصيد وفيراً إذن!

أشرق وجه الحوت وأبو العبد وهما يرياني خارجاً من محنة الدوار.

قلت لعلي: أنا عطشان يا صديقي.

ردّ: لن تشرب الماء الآن. سأغلي لك زهورات. الحمد لله على سلامتك.

وبوجهه الأسمر المحروق والنحيل تهلل الريّس أبو العبد.

ـ الرحلة على شرفك يا صديقنا. تمنينا لو شاهدت معارك الصيد في عزّها. لكن الحق على الحوت سامحه الله. واستطرد: قلبُنا كان مع الخيط ومعك في وقت واحد. خيرها بغيرها إن شاء الله.

مزحت معه: لكن المرّة القادمة سأمسك بالخيط حتى لو جرّتني أم عين معها إلى أعماق المحيط.

ـ هذا وعد مني.

احتسيت كأس الزهورات فانتعشت.

كنا الآن على أبواب الفجر الذي لاح من الشرق بأطيافه البنفسجية.

إذ بدأ الجسد والأحشاء والروح تعود إلى إيقاعها الطبيعي أدركت أن رحلة الصيد السومرية شارفت نهايتها. غمرتني موجة من الأسى. موجة مرارة وإحباط داخلي. الأشياء ناقصة لاتكتمل،

والجسد يخون في نهاية المطاف. لقد عبر الزمن السعيد. زمن الصيد الممتع في غيابي.

ومع ذلك فقد كانت مغامرة ليلية وتجربة حية لاتنسى. هجست ونحن نقلع عائدين مع طلائع الفجر وبداية الشروق.

ونحن نرسو على الشاطئ والقبيلة تستقبلنا بفرح طافح وتهليل الوجوه والزغردات، ناولني أبو العبد السمكة الأولى التي اصطادها مع سمكة السفرني، ثم رفع المرساة ولوّح بالوداع. حين رفعت السمكتين بطول ذراعي مزهوّاً كبطل انطلقت الزغاريد المرحة: بابا. بابا. يا أعظم صياد في العالم.

قبيلتنا الأهلية طارت من الفرح وهي تتناول حصاد الصيد. صيدي كما توهّموا.

16

سوى الصمت لا شيء في بيت البراري. البيت الذي سيُشاد في غيابك، بعد أن نهجر مخيمات البحر.

على الجدار صورتك وأنت ممدد في ظلال صخرة الوادي كأمير في استراحة.

صورة أخرى أمام الخيمة، تبدو فيها حارساً، مستنفراً في وضع التأهب والوثوب.

لم يبق منك سوى الصور وأطياف الذكرى.

لو تعود إلى الحياة الآن ليداعبك ورد الذي يسألني وهو يرى صورتك الجدارية: لماذا قتلوه يا جدي؟

يجرحني السؤال فأصمت.

لو كنت حيّاً لداعبته وجريت أمامه إلى شاطئ البحر. ورد الجميل كزنبقة، والذي طهّرته في مياه البحر وهو في شهره الثالث.

بعد أن رويت له حكاية صداقتنا وأطوارها الغريبة، ورحلاتنا الأسطورية المبهّرة بالأكاذيب البيضاء والمبالغات الخيالية، حَلم لو يمتطي ظهرك وكأنك حورية بحر (كنت قد رويت له حكايا ملوّنة عن حوريات البحر في الأعماق وأنت معي في تلك المغامرات الساحرة وحولنا الدلافين والحوريات الراقصة التي ترشدنا إلى القصور البلّورية المنسية في أعماق البحار) حيث تبحران معاً نحو تلك الكنوز المنسية، في صيفك المفقود الآن.

عبر مجرّات الحلم، وهو مبحر تحت شراع الفزع من رهاب الأعماق، وأنت تمخر به العباب يسألك: ولكن إلى أين يا فيديل؟

- إلى جزيرة النمل ومواطن حوريات البحر.

- لكنها بعيدة والبحر مخيف. فيه حيتان.

تروي له وأنتما في عباب اليمّ ما جرى لك قبل أعوام، ولأنه يهوى الحكايات ينسى الفزع.

كان يا ما كان قبل عشرة من الأعوام، كيف حملناك لأول مرة في سفينة أبو العبد يوم كنت غرّاً إلى الجزيرة في نزهة صيد تحت شمس حارقة.

كيف أغمي عليك من الوهج والصهد وحرارة الصخر، وإذ قذف بك آدم في البحر لتبترد استرددت حيويتك لوهلة.

في غمرة الصيد نسيناك فوق الصخر البركاني اللاهب. لكن الملح كان يحرق جلدك والصخر يشوي أقدامك ونحن مأخوذون بحمى الصيد، بينما كنت تنفق تحت الهجير.

حملك آدم بعد أن تفقدك ورآك على حافة الموت إلى ظلال كنيف

صخري. كان هلعاً عليك، وراح يغرف بكفيه حفنات من البحر ويمسح جسدك الممدد إلى أن عبر زورق لوّح له فحملك بين ذراعيه إلى الزورق باتجاه المخيم.

وأنا أروي عنك في الطفولة والفتوّة يخالجني إحساس غريب، لا معقول، حول أخوّتنا في جيل سابق!

أحاول الإيغال عبر استعصاءات مستحيلة. في عمق ضباب كثيف لا يُخترق. بداية الخلق والتكوين الهيولي الأول. الخلية البدائية لاختمارات الأرض. تحوّل الآميبات بعد ابتراد الأرض وهدوء الغمر. احتمالات الأزمنة الموصدة عبر مليارات من الظلمة التي لاتُحد. ظلمة اللغة والإشارات للحيوان الأول والنبات الأول والطيور والفراشات الأولى. موسيقى الأصوات وأصداء الغاب والزمان الأسطوري. لماذا أنت وأنا. أنت الحيوان وأنا الإنسان مأخوذان بأمنا الطبيعة؟ نجري ونتواثب في الفضاء الطلق فوق الأرض الصلبة، عابرين تلك الأراضي الوعرة والجبال بحيوية ووحشية عذبة، غير مبالين بالخوف. بل مؤتنسين بدفقات الدم في الجسد، وبهذا البهاء البرّي المنعش للروح، مزيحين في لحظة الانطلاق تلك التمايزات السلالية ولاغيين حدود الغريزة والعقل!

تعبرني ظلال طفولة قديمة مغلفة بالسحر، روح مسحورة بالشجر والحيوان والطير والحشرات ورائحة الأرض وصوت الأمواج. نبض قديم قدم الزمان الأول يجتاحني مشعلاً في الأعماق الخفية ملايين الشهب وأنا أعدو صغيراً عبر الأودية والغابات وبين الشعاب الشائكة، أتسلق الأشجار بحثاً عن أعشاش الطيور، كما القرود والسناجب. مع حفنة من الصبية فوق الأشجار، نبني أكواخاً من الأغصان والأوراق لننام فيها ليلاً.

وفي ليالٍ مقمرة نهرب إلى الكهوف والمغاور المهجورة لنكسر الخوف والفزع، مقلّدين أبطال الحكايات التي سمعناها أو تخيلناها، وفي مخيلتنا• أشباح الجن التي تسكن تلك الكهوف المظلمة، وحتى نطردها من خلال فزع الدم الصاعد في عروقنا كنا نصرخ منتشين بالصدى المرتد من جدران الصخور والهوّات السحيقة للوديان (صراخنا كان نوعاً من العواء المقلّد للثعالب والذئاب ووحوش البراري).

ولكن من أين انبثقت هذه الإيقاعات الموغلة في الزمن؟ أكانت نوعاً من اللعب أم هي استرجاعات للأصل الأول؟ أم هي محض حكايات خرافية تنسجها مخيلة راوٍ هارب من الملل وسن الرشد؟

ما سأتوهمه في ليالي التأمل والاستغراق السريالي، أو عبر الأحلام اللامعقولة، في أمسيات البحر السحرية، أن ما كان ينقصك هو النطق والسير على قدمين. وفي تلك الأوقات كنت أتخيلك وقد خرجت من ثوب مسوخيتك بعد أن قطعت مليارات السنوات المعيقة والكابحة، منتصباً أمامي وعلى كتفك بندقية صيد، صارخاً بي: هيّا أيّها الوغد الكسول. البراري تنادينا!

لو لم تمت غيلة ربما كان بالإمكان الوصول إلى خط التماسّ.

سرّاً كنت أراهن على الحالة من خلال المراقبة والملاحظة الدقيقة لأطوارك ما فوق الغريزية.

لماذا لم تأكل أبداً عظام الطير التي أصطادها؟

لِمَ كنت تفتش عن طيور الدرغل والحجل المدجنة والآهلة التي ربيتها في الحديقة، حين تضيع فلا تعرف كيف تعود، تسوقها أمامك كراعٍ لتعود بها إلى الأقفاص؟

كيف كنت تميز بين عظام الطيور البرّية التي تُصاد، والطيور الداجنة فلا تمسّ عظام طيور البرّ؟

بأي عقل لا غريزي كنت تعرف الطريق بين البلدة و«بحرون» البحر وأنت تقطعه في الليالي صعوداً ونزولاً عبر مسافة كيلو مترين متحاشياً، عبر الجوانب، احتمالات صدمة سيارة أو دراجة نارية؟

في الصيف الثالث لهجران شواطئ البحر، في أعقاب فقدان علي التريكس الفاجع، سقطتُ على ظهري عن سطح غرفة زراعية ونحن نمدّد أسلاك الكهرباء لخيمة الأرض. كسرت السقطة فقرتين في العمود الفقري، فتمددت على مدى شهر ونصف على ظهري في البيت بحالة يرثى لها. حالة كانت تنذر بالشلل نجوت منها بأعجوبة.

كنت مقصى عن حالتي الطبيعية التي تمنعني من الحركة جراء التعليمات الطبية الصارمة، سوى الاستلقاء على الظهر أو الانبطاح (واستطراداً للذكرى التي تشير إلى هشاشة الجسد التي داهمتني في دوار البحر، كنت أبول وأتغوط في حوض أبيض متحرك يشبه شكل مرحاض متنقل) حالتي آنذاك كانت حيوانية بالمعنى العضوي، وعبرها كنت أتقاطع معك في زمانك المسوخي القديم، (كما هو متواتر في المذاهب السرّية التي تروي خرافاتها عن الثواب والعقاب في تناسخ الأزمنة).

بعد أسبوعين من غيابنا عن بعضنا أطلب رؤيتك بعد اشتياق.

سيعتري الذهول أفراد قبيلة البيت، وهم يرون دخولك إلى الغرفة، حيث أتمدد على ظهري المحطم، كيف وثبت بيديك، وأنت تبكي بعواءات جارحة، فوق حافة السرير منكباً على صدري، تلحس وجهي ورقبتي. كيف تعانقنا كصديقين طال فراقهما: هاي فيديل. مرحبا. كيفك. اشتقنا. لابد أن لغات العالم، ومعها كاميرات التصوير الحسّاسة، كانت عاجزة في التعبير عن تلكِ الحرارة الوهّاجة والحميمة للصداقة الخفية التي لاتسبر أغوارها في تلك اللحظة

الخاطفة، اللحظة التي صهرت زمن التآخي القديم في برهة عناق عصيّ على التفسير العقلي.

كنت تجثو قرب السرير على البساط، وعيناك البراقتان كاللآلئ مصوبتان نحوي. عيناك الحزينتان الثكلاوان قالتا لي: لماذا حدث ذلك؟ بريقهما شعّ بالتياع: ما كان عليك أن تنكسر. أنا يتيم ومنبوذ في غيابك الآن.

مددت ذراعي حتى طالت رأسك ورقبتك.

مسحت على ظهرك، موشوشاً بلغتنا السريّة التي تفهمها: لاتحزن. سأنهض قريباً ونعود كما كنا إلى البراري. الروح قوية رغم هشاشة الجسد. فهمت اللغة فضحكت بتكشيرة وعناق من كفك الجارحة.

ـ هل وضعك هذا سيطول؟ سألت عيناك.

ـ لا. قريباً أشفى. ألا تثق بقوّتي الداخلية؟

ـ لن تخذلني؟

ـ أبداً.

ـ اشتقنا للبراري والحرية.

كنا نتخاطر بلغة خاصة لايفهمها سوانا. اللغة القديمة المنسية في كهوف الزمن يوم كنا...

بعد اغتيالك ستنهال عليّ في أحلام اليقظة والنوم أسئلة الخذلان. أسئلة حول الثأر والانتقام والحقد والكراهية، وسأقع لزمن طويل فريسة طائر التأنيب وهو يصيح من قبرك: لقد خذلتني ياصاحبي!

وسأسأل نفسي فيما بعد، من خلال ذلك الجرح المفتوح على أفق الذاكرة، هل كنتُ جباناً أم كنتُ أعزلَ من أي سلاح؟

دعنا نُزِحْ العتب والتأنيب الآن، وهذا الاستطراد الموجع.

إذ حاولوا إبعادك وإخراجك إلى وجرك في الدار تحت شجرة البرتقال تأبّيت. عويت وكشّرت عن أنيابك استعداداً للهجوم. وشوشت في أذنك: هيّا. غداً نلتقي.

نهضت متثاقلاً وحزيناً، وافترقنا.

17

ملايين الأسئلة المعلقة في سقف العالم؛ أنت وأنا وهُمْ ربما لانعرف الإجابة الدقيقة عن الحلقة المفقودة. الخيط السرّي الذي ضاع في غياهب الزمن. وكي نهرب من الأسئلة اللايُجاب عليها نأوي إلى أودية النسيان أو اللامبالاة أو الصمت. لكن الذاكرة الجيّاشة كخلايا النحل لاتتوقف عن الهيجان.

في أعقاب اغتيالك كنت أصارع الوحش. الوحش الداخلي النازع للثأر والانتقام. وحش أجدادي القدامى الجاهليين الذي لم يغادر الدم رغم محاولات التطهر من ذلك الميراث القبلي.

كنت فريسة نزاع بين القتل والتصعيد، بين الثأر والغفران. كيف أهدّئ هذا الجيشان والاضطراب. وكيف أمسك بتلك العواصف التي تجتاحني في الليالي والنهارات. الأعاصير التي تهبّ في الدم من صحارى القبيلة. الأعاصير التي تصرخ: العين بالعين والسن بالسن!

ـ ولكن كيف تردّ على الحماقة بمثلها؟

ـ هم استهدفوني وأنا أعزل.

ـ الأغبياء الحمقى أتتوازى بهم؟

ـ بل الأقوياء البَطِرون، الوالغون في الدم.

ـ أنت وحدك.

ـ لابد من صرخة أو طلقة في هذه الظلمة المتوحشة.

بدا الحوار الداخلي مغلقاً، معزولاً، نائياً، يمتصه أجيج البحر.

ـ كلب ومات.

هكذا اختزلوا المأساة فيما بعد، لاغين بعبارة عفوية وغبية تاريخ علاقتنا الحميمة.

عبر برهات التأمل، وأنا نهب الدوّارات العميقة، خيّل إلي أنني طهّرت روحي من أدرانها القديمة، حين بدأت أخرج من ميراث الصحراء باتجاه الأراضي الخضراء الجديدة.

ما كنت آسفاً وأنا أخرج من قبيلتي البدوية. وحين لجأت إلى سهل بحرون، كان زمن قديم قد ولّى، وجاء زمن آخر، كما تخيلت. حفرت عميقاً في الأرض. رميت بالديدان إلى الطيور.

كسرت الحجارة الصلبة، وقذفت بالطحالب والأعشاب الضارة نحو التخوم، بحثاً عن التربة الخصبة كي أزرع الشجر المثمر والخضار والأزهار تحت الهواء الطلق غير المسمم، كي أصعد في خلايا النسغ الجديد داخل الوهم الطفولي الذي شرد ذات غفلة في تضاريس الزمن.

لكم كنت أنشد السلام الداخلي بعد تلك الحروب اللامجدية. بعد الخراب الذي دمّرنا، حين انقلب التاريخ في الغفلة، وآل إلى ما هو عليه الآن في هذا الزمن المحطم، شبيه طيارة من ورق كنا نلعب بها فوق السطوح. نراها تعلو سحيقة في الفضاء فنفرح، نحن الأطفال السذّج والحالمين بالوصول إلى ضياءات النجوم، وبغتة ينقطع الخيط فتهوي طياراتنا فوق الصخور وتتهشم.

هل غُدرنا بطفولتنا الغبية والبريئة؟ أم كنا ضحايا تلك النجوم المشعة في الليالي الخادعة؟ أم أن الفيروس كان يلوّث حليب الأمهات؟

كم بدا صعباً، في ذلك الزمن، الاهتداء إلى الدروب المضيئة بعد أن ضيّعنا الاتجاه.

في براري الصيد، وخلال الاستراحات، كنا نتخاطر بلغة سريالية، هزلية، موشاة باللعب والسخرية. أسئلة لامعقولة من نوع: فيديل ما رأيك بهذه الحياة التافهة التي نحياها؟

تلوي رأسك ثم تقترب وتلحس وجهي ممرّغاً رأسك في صدري.

أترجم الحركات والإشارات إلى معانٍ أرغبها:

ـ لا جدوى من أي شيء مادام الموت هناك على مرمى حجر.

ـ وبعد الموت هل هناك من حياة أخرى؟

توشوش عبر عواء حزين: لا يهمّ. الحياة تُعاش مرة واحدة. أنت وأنا سعداء الآن في هذه البرهة المضيئة. برهة الصيد واللعب وغبطة الجسد. هذه هي الحياة ما عدا ذلك ليس سوى ظلمة.

كان الإنساني والحيواني يمحوان الحدود والمفاهيم التحريمية وتاريخ التطور. يعودان في لحظة الصداقة والتماسّ اللامدرك إلى الأصل الأول.

ذات أصيل، ونحن تحت شجرة زيتون، بعد ظهيرة خريفية، باغتني إدراك عبثي عابر. كنت أراقب لمعان ضوء الشمس فوق حجر أبيض. حصاة ملقاة بين مئات الحصوات: تلك الحصاة ستحيا أكثر مني في الزمن. هي الجامدة، الصلبة، المنسيّة، وأنا الحيّ، العاقل، النابض بالدم.

إذ تناولتها وقذفتُ بها بعيداً وثبت نحوها وحملتها إلي.

كان زماناً لا ينسى.

في عصور الفساد وموت الروح، كنّا نحاول تشيّيد مملكة

للبراءة والنزاهة والصيد واللعب. مملكة صغيرة، شبه منفية، خارجة على المألوف، وعما هو معترف به في عصور التوحّش والإرهاب والمطاردات والشك. مملكة أزهار اللوتس فوق المستنقع.

وإذ اخترنا ضفاف البحر، والغابات، ورائحة الأرض، وإيقاد النيران على صخور جزيرة النمل في الليالي القمرية، عبر سهرات المتعة والشراب والصرخات الطلقة فوق الصخور أو في أعماق البحر، كنّا نستعيد، خارج المراقبة والخوف، الزمان الطفولي للإنسان الحرّ. الزمان البدائي للأجداد الذين كانوا يسمرون على ضوء الفوانيس بعد التعب والشقاء على ضفاف السواقي، أو فوق مروج الينابيع قبل مئات الأعوام. الآباء والأجداد الأنقياء الذين خرجنا من أصلابهم، والذين حرثوا الأراضي وسقوها وعشّبوها بأذرعهم الصلبة وأجسادهم الملفوحة بصهد الشمس الحارقة، ووحول السواقي. أولئك الذين واجهوا ملّاك الأرض والإقطاع في الأزمنة القديمة بانتفاضة النبع الكبير الشهيرة وانتصروا فيها بالخناجر والعصي والحجارة.

من أين انبثق هذا الزمان المنسي، عبر هذه الحكاية الغريبة التي نرويها عن الصيّاد وكلبه الذي سيقتل غيلة ذات غسق، ثم يُرمى به جثة هامدة على حافة الساقية التي شهدت سهرات الفلاحين وسَمَرَهم، زمن كنت صبياً في العاشرة، أستلقي في حضن والدي أراقب النجوم وأسمع حكايات سمر الليالي على صوت الضفادع وزيزان الليل حتى أغفو، بعدها يُحمل الصبي في أحضان الأب إلى العرزال المشاد على رابية الساقية!

عبر اللاشعور الجمعي ربما كنّا نستعيد الزمن على نحو مختلف. أو أن الزمن فينا كان يواصل دورانه ونحن لا ندري.

هل كنّا أسرى الزمن، ونحن ننشد الخروج منه، عبر خديعة ونسيان، في محاولة واعية لإزاحة الطفولة الأولى التي خيّل إلينا

أنها مضت إلى غير رجعة؟ أترانا في هذه العودة، عودة الأصدقاء من كل أصقاع العالم، بعد رحلة العلم واكتشاف الدنيا ونموّ الوعي الإنساني، كنا ندرك هذه الحالة الغافية في أعماقنا وفي أعماق البحر الذي نغطس فيه بفرح طفولي مدهش، وإذ نخرج من الماء نحسّ غبطة الولادة، والتوق إلى تأبيد هذه اللحظة. توق الخلود داخل رحم البحر الدافئ، كما كنا قبل الخروج إلى العالم من رحم أمهاتنا؟

لعلنا كنّا نحيا صعود العصارة الأولى في الخلايا، ونحن نتوهم استعادة الزمان الأول للصيد واللعب والمرح وانبثاق الطفولة في فجرها الأول والنقي. هكذا بين الأزمنة المنسية ومحاولة استعادتها نقع في شبكة الظليل ومحيطه اللامرئي. نحن هناك في البقعة الصغيرة الممددة بين الشمس والظلّ، حيث اللاحقيقة في جوهرها المادّي. الجوهر الذي يستعصي على التحقق، وحيث الالتباس. أسرى تيارات الذاكرة والنسيان والغموض. في تلك الأقاليم المجهولة والدوّارة كتيارات البحر لانعرف كيفية الإجابة على الأسئلة الصعبة.

كان زماناً ممضاً وعذباً لا يُنسى.

بعد العودة من صحارى المنفى كنا في البيت تحت وطأة الفاقة.

عدت خائباً وشبه مفلس ومهزوماً (كيف يعود رجل خارج من الحرب ومأخوذ بحلم النصر مع المقاومة في لبنان بعد الاجتياح الإسرائيلي؟).

ومع ذلك ما كنت نادماً رغم إحساسي بالانكسار والمرارة.

ها أنت تعود أخيراً. وها هي أعراس الأهالي والأصدقاء تحتفي، عبر نشوتها العفوية، بعودة ابن البلد المقاتل العائد من الحرب وحطام الموت.

كما في مشهد سريالي، مباغت، وغير متوقع، رأيت نفسي كمن

يطير فوق الراحات، تحت إيقاع الطبول والهرج والهتافات بحياة المقاومة وبسالتها في بيروت الحرب والجوع والعطش والحصار.

كان مشهداً تراجيدياً لن يُنسى.

بعد العودة المهزومة، والخروج من الحصار ببقايا الجسد والروح، كنا نحيا بالضروريات. خبزنا كفاف يومنا. وصيدنا من البر والبحر كان يكفينا في البيت. وآن كان يسألني الأصدقاء عن الحالة المادية كنت أردّ بمزاح: مادامت الصنارة والبندقية موجودتين فالأسرة لن تجوع.

أربع سنوات من التخييم الصيفي على شواطئ البحر، تبدو الآن في الذاكرة حلماً خالداً. الأصياف البهية، الحارقة، الطفولية، المجنونة، العذبة، المقدسة. أصياف الماء والأمواج والنجوم والسماء والليالي والرمل الدافئ، والأصدقاء، ثم النساء الصهباوات بلون الرمل ووهج الأصيل، اللواتي عبرن المحيطات والبلدان النائية، وعشن زمناً خاطفاً ومسروقاً على شواطئ بحرون، ثم غادرننا تاركات في أعماق أصدقاء البحر ما لا يُحصى من الحسرات. فيما بعد سيتحولن إلى ذكرى منسية حين يُستبدلن بالنساء الأهليات البارعات في فن الطبخ والإنجاب وإيقاد حروب النكد والغيرة.

18

ها أنذا أشتت الحكاية. الكلمة الدقيقة هي أنني أنثرها كما فلّاح يبذر قمحه في الأرض عبر الاتجاهات الدائرية؛ ولأكون صادقاً مع نفسي لست متأكداً من الإنبات، عبر تربة أشك بصلاح خصوبتها.

كما يخيل إلي، أحاول أن أروي شيئاً عن الزمن الهارب، في استقصاءات مشهدية، لها صلة بالجغرافيا المحلية والكونية في آن،

عبر طموح شبه مستحيل سأسميه: رصد الزمن المتحوّل داخل مساحة من ذاكرة لا تُنسى.

أن أخلّد هذه الوقائع في مسيرة الزمن إن كان لهذه الوقائع من معنى.

لعلّ الكلمة الدقيقة تقترب من: محاولة إيقاف الزمن في لحظة هاربة تشبه الإنعاش لمريض سيصاب بفقدان الذاكرة.

بعد هذا الاستطراد الفلسفي والنفسي، الاحتمالي والمشكوك في إقناعه، نعود إلى حكايتنا مع الصديق فيديل.

سأتذكر وأنا أداعبه على شاطئ البحر، في صيف التريكس، كما درجنا على تسميته، قبل موتهما، تلك العبارة الغريبة التي كتبتها في حالة شبه عبثية على الرمل: متواضع كالرمل، عالٍ كالسماء، صاخب كالبحر. حتى الآن لا أدري من أين انبثقت الجملة شبيه ينبوع يتفجر من صخر.

كنت مستلقياً على ظهري محدّقاً في العمق السماوي تحت هجير الشمس. كما بروق كانت الأشعة الطيفية بألوانها تتغير وأنا أغمض عيني. نقاط وخيوط ودوائر. إيماضات بكل ألوان الطيف تنبثق وتتبدد في فضاء السماء.

كان فيديل يثب حولي ويلعب كطفل ناثراً الرمل على وجهي وصدري، في البرهة التي كنت أفكر فيها بالجملة التي باغتتني إذ راح الموج يمسح كلماتها حين بدأ المدّ الموجي.

ما معنى ذلك؟ ولمَ وُلدتْ الآن؟ وما صلتها بحالتي الراهنة؟ وكيف جيء بها من أقاصي الأقاليم وأعماق الروح وينابيع الحليب؟

آنذاك، في تلك البرهة اللامعقولة، لابد أن شيئاً ما، غامضاً ومستتراً، خرج مني. شعاع شقّ الأضلاع وزاغ في سماوات لاتُحدّ.

في تلك اللحظة الغريبة، عبر فضاء صخب الأصدقاء على الشواطئ وبين الأمواج، ولعب فيديل المحبور والمجنون

بالضوضاء، كان هناك اثنان منقسمان، أحدهما ملقى على الرمل الحارّ والآخر مقذوف في عالم غريب ما فوق أرضي، بينهما طاف شبح أبيض يشبه طائر النورس، اختطف سمكة صغيرة عائمة وغاب في الأفق.

فوق الجسد تهدّلت ظلال إذ تغطت الشمس بغيمة عابرة. الأفق وسطح المحيط أذْ كَنا داخل سديم رمادي.

شيء ما في الداخل اضطرب بغتة. اعتكار يشبه النذير داهم الروح. نهضت من رقدتي، نافضاً الرمل العالق والأشباح واستيهامات الموت، ثم انغمرت في لجج البحر.

في نهاية الأسبوع، وكنا في الخريف، سأتذكر المشهد البحري كأنه نبوءة.

ـ فيديل جريح وهو...

ـ أهو في خطر؟

ـ لا أدري مدى الإصابة. هو ينزف الآن بين يدي ولايسمح بالاقتراب منه لإسعافه.

صوت صديقي المتهدّج، وصديق فيديل، اخترقني كما سهم عبر الهاتف.

كنا في البلدة بعد انتهاء صيف التخييم، في الوقت الذي دأب فيه على النزول إلى سهل بحرون متى خطرت له نزواته، والعودة إلى القرية، لا فرق لديه بين الليل والنهار.

استنفرت القبيلة عبر صرختي في أرجاء البيت: أمر ما حدث لفيديل. لقد أطلقوا النار عليه قرب الخيمة. يومذاك لم ترافقني إلى الصيد. بنزوة منك غرّبت إلى السهل في الضحى. بحثت عنك فلم أجد لك أثراً. كنتَ تمارس حريتك اللامحدودة التي ستودي بحياتك ذات يوم.

حين تلقيت النبأ كنت ماأزال عائداً للتو من الصيد ولم أخلع بعد سترة الخرطوش.

كما مشهد، استعداداً لمعركة. جرى الاستنفار.

بدا المشهد آنذاك، ونحن في الطريق لإنقاذك والثأر لك، مشهداً تراجيدياً وكوميدياً في آن.

كنّا مدججين بالأسلحة كأننا في حملة حربية من حملات حرب البسوس، ونحن في الطريق إليك. تجاذبتني الخواطر، خارج موجات الغضب وهيجانات الثأر: أمن المعقول إطلاق النار على إنسان مقابل موت أو جرح كلب؟

كززت على أسناني محاولاً إطفاء النيران الجاهلية حين سطع نور العقل في الرأس.

وميض القتل بدا مشعّاً في عيون الشبلين الثائرين، الشبيهين بالزير سالم وكليب وهما في طريقهما إلى قتل التبّع حسّان.

ما كان غامضاً في مسيرة الحملة البسوسية الثائرة، أن الخصم كان مجهولاً حتى تلك اللحظة.

عبر الطريق إلى الخيمة، حيث كنّا نخيّم صيفاً، والتي صارت شبه مزار للسيد فيديل عبر فصول السنة بما هي مربع طفولته، حاولت تهدئة الحالة بالبحث عن السبب والتريث وتحاشي ارتكاب حماقة قد تزج بنا في مهاوي الجريمة.

كان الحوار ساخناً وحادّاً بيننا، ونحن نقترب من تخوم الخيمة العارية سوى من القصب.

عواؤك الجريح قطع حبل الحوار: مازلت حيّاً إذن! تنفسنا الصعداء وهمد في الداخل وجيب الثأر.

لقد تحاشينا حرب بسوس جديدة.

جريت وأنت تعرج باتجاهنا إذ شممت رائحتنا. كنت تنزف

وأنت تثب حولنا وتتشمم صدورنا ووجوهنا غير مصدّق أننا قدمنا لنجدتك.

في عينيك لمحت بريق الدمع والانكسار والألم.

- انفردوا بك في غيابي أيها الأحمق!

في ذلك المساء المكهرب بشيطان الموت الوشيك، هبطت علينا السكينة. تفقدنا جرحك الطفيف وإصابتك الخارجية ثم حملناك إلى السيارة صعوداً إلى البيت.

كان الحادث عَرَضياً، جرّاء اقترابك من مزرعة عجوز أحمق، قادتك إليها كلبة فاسقة نادت غريزتك فدفعت ثمن نزوتك من دماء قدميك ومؤخرتك بطلقة من بندقية صيد قديمة.

تلك الحادثة التي مرّت بسلام ستكون النبوءة بإشعال حرب البسوس الحقيقية القادمة.

الحوار مع قادة الحملة البسوسية، ونحن ننقلك إلى القرية، كان حادّاً ومحموماً.

بجهد أطفأتُ النيران المتقدة والنفوس المهتاجة في ذلك المساء المشوّش والقابض للقلب، وتجاوزنا المحنة.

ضمّدناك ثم أطعمناك المرق والعظام، وبعد الاطمئنان عليك، شربنا كأساً على شرف نجاتك.

- أمر تافه وكفى. قلت.

- الحادث ليس عرضياً. قال عاصي الذي نطلق عليه اسم «بارود» سرّاً.

- نشعل حرباً من أجل كلب كما في حرب البسوس من أجل ناقة؟ هل هذا معقول؟

- معقول ونصّ. أخوات الشراميط والعرصات يستهدفون بيتنا وهذه الأسرة التي لم تساوم. حدث هذا في غيابك يوم كنت مع المقاومة. أكثر من مرة داهموا البيت وروّعونا هؤلاء الأوباش.

كان في أوج الاحتدام. بدا مستثاراً من أمور أخرى. وقائع

وأحداث جارحة ومهينة، يوم كنت مُقصى ومبعداً والأسرة معزولة وتحت المراقبة، بلا أب يحميها.

في تلك الليلة انفتح الجرح، وفاضت المرارات تحت ضباب الخمرة. كان بارود على حافة الانفجار.

ـ لاتضخم المسألة. حدث عابر ومضى. نحن الآن معاً. لقد رأيت الأهالي كيف احتضنونا. كيف حوّلوا العودة إلى عرس لا يُنسى. هؤلاء الناس هم الحقيقة والجوهر النقي المشعّ في نهاية المطاف.

في ذلك الزمن الضيق كنا نصارع الغوائل.

غوائل الفراق والمنافي وشتات الروح، وغائلة الجوع والفاقة، ومحاولة ترميم ما تهدّم في الأزمنة الضائعة.

بقوّة الروح كافحت الأسرة سنوات العزلة والنبذ، حفاظاً على برق الظلمات. احتفظوا بالجمر تحت الرماد كيلا ينطفئ الأمل عبر السنوات العشر العجاف. عاشوا على أمل العودة واللقاء تحت كوابيس العزلة والفقر والخوف والمداهمات الليلية.

وبنبض الروح والأمل بقي النبض في الأوردة والشرايين، واستمر القلب يخفق.

ـ نحن فخورون بك. لم نركع أبداً رغم العواصف التي اجتاحتنا في غيابك.

ـ أنا أيضاً فخور بكم. لكن دعونا نقلب هذه الصفحة المأساوية الآن. ولنشرب نخب نجاة فيديل المأفون.

أغلقنا أبواب الحوار وانتقلنا إلى صالون البيت لنشاهد على شاشة التلفزيون فيلم «طيران فوق عش الوقواق».

19

في الصيف الثالث مات حوت البحر.

كان صيفاً فاجعياً.

موته المباغت اخترق القلب كما حربة.

كان قادماً من الدمّام وشوقه لبحر بحرون يضاهي شوق رجل لامرأة تنتظره بعد غياب طويل.

تعرّى سوى من الشورت، وشقّ البحر.

أوغل عميقاً باتجاه أقفاص السمك التي رماها في الصباح على بعد مئات الأمتار.

كان الوقت غروباً حين أوشك على الاقتراب من جزيرة النمل، حيث سبح إلى ما بعد مواقع الأقفاص الحديدية.

كان الجسد يندفع بقوته، توقاً إلى ملامسة الصخرة التمساحية، الصخرة التي عرفتها طفولته قبل ثلاثين عاماً، والتي سبح إليها عارياً ملايين المرّات وعاد وهو في أوج نشوته ليشرب المتي أو الشاي بعد أن يغسل جسده بالمياه الحلوة من البئر الرملي.

قبل بلوغ الجزيرة بحوالى مئة متر أدركه وهنٌ مفاجئ. إنهاك لا عهد له به يشبه الخدر الداخلي، سرى من الجانب الأيسر للضلوع باتجاه الذراعين. طوّح بذراعيه وهو يتقدم، لكن الوجع الناقز هناك في الأحشاء راح يسري كما دودة تقرض ما تحت الصدر.

الذراعان القويان والصدر الصلب والتوق الداخلي، بدأت تخمد في لحظة خذلان الجسد.

استدار عائداً تحت وطأة آلام راحت تتصاعد مع كل ضربة ذراع.

كان الآن يصارع البحر وضربات القلب الخافتة عبر الخدر وتباطؤ اندفاع الدم في الأعصاب.

ما كان مدركاً الحالة سوى أنها حالة عرضية لها صلة بهجرانه للبحر على مدى عام.

إذ أدركه الإعياء استلقى على ظهره وعام، محدّقاً في سماء الغروب.

جاءته ذكريات مشوّشة من طفولته وشبابه وكفاحه من أجل الأرض. أطياف خيام البحر وتوقه للزواج من امرأة تحيا معه فوق هذه الشواطئ البريّة والمنسيّة سوى من الليل والقمر والضفادع والأسماك. امرأة تؤنس وحشته في الغرفة الكرتونية تحت إيقاع مطر الشتاء، حيث ينغمران معاً تحت الفروة الصوفية التي جاء بها من أقاصي الجزيرة العربية. وهو عائم عبر الأطياف شعر ببرودة الماء تتسلل عبر أوصاله. صقيع صيف كان حارّاً قبل لحظات.

الجسد الصلب، الأسمر، ما كان فيما مضى يعرف السكينة والهمود. كان ينبض بقوة الخلود ودفقة الحياة.

ما الذي يجري الآن؟ أي خلل مباغت داهم الخلايا والدورة الدموية لاتساق الجسد؟

في غمرة الصراع وهو يتأرجح، مقهوراً بخيانة الجسد، والنبض المتهاوي للقلب، أدرك الطعنة الغادرة للبحر.

حين صرخ وهو يصارع بما تبقى من الرمق، في العمق الأصمّ للماء: يا إلهي، أعطني القوة لأصل إلى البرّ. كان الأوان قد فات.

مع المغيب الأول، والشمس على حافة الأفق، لفظ البحر حوته على الرمل مكفّناً بالطحالب والأشنيات، كما يلفظ طوفاً هشمه الموج مع الغروب الأخير للشمس.

20

السؤال الملحّ، والذي سيستعاد في الذاكرة:

أكان بالإمكان تفادي الفاجعة؟

ولعل السؤال الأكثر تأنيباً كان يصاغ على النحو التالي: ما مدى إهمالي فيما جرى لك؟ وهل كنت مسؤولاً بنسبة ما؟

في ذلك الزمن الأخير، قبل اغتيالك، بدت صداقتنا تدخل فضاءات من الحرية والإهمال واللامبالاة. كنتَ طليقاً حتى الأقصى. تتجول بحرية في المحيط المألوف للبحر والأرض والخيمة، بعد أن ألِفَك الناس والأصدقاء، كما ألِفْتهم بمودتك ووفائك ورعونتك.

في تلك الأوقات كنت منهمكاً بتشييد البيت، ومطاردة حيثياته اللعينة كي ننهي عصور التخييم الرعوية الطلقة والممضة، باتجاه ملاذ حضاري يقينا غوائل العواصف والاستقرار وشتات الفصول، بعد أزمنة المنافي والهجرات، المحطمة للروح.

أنت وأنا، كنا في ذلك الزمن الغارب بلا بيت ولا وطن، سوى البراري وشواطئ البحار. حيوانان طليقان في فضاءات الزمن والله.

من أين هبطت عليّ تلك اللعنة الشيطانية كي أبني بيتاً من الإسمنت والرمل والحجر. هذا الكهف الذي سينفيني فيما بعد عن تخوم البحر!

حين سأسأل نفسي في قادمات الأيام إن كان تشييد البيت ضريبته فقدانك، تعتريني حالة من التأنيب. ولأعوّض هارباً من الجواب أخاتل هاجساً بأن حريتك وفضولك الشبقي كانا في جذر الفاجعة.

لكن الندم والعتاب ماعادا مجديين الآن.

والآن بعد تلك السنوات من اغتيالك، لم يبق لي سوى استعادة اللحظات الأخيرة لوداعنا.

كيف أطعمتك اللقيمات الأخيرة. شرائح من الخبز المغمّس بالزيت ونحن على شرفة البيت غير المكتمل. قلت لك: لابأس بهذه اللقيمات الآن. نحن مدعوان إلى سهرة شواء حيث ستنال نصيبك الكافي من عظام الدجاج والسمك.

فجأة غبت عني بين الأشجار، على أمل عودتك لنذهب سوية إلى السهرة على شرفة بيت صديقنا المواجه للبحر.

إذ تأخرت عن الموعد ناديتك بالصفير المعهود، لغتنا في اللقاء.

لا أثر لك. قلت في سرّي: أنت تعرف البيت وستأتي فيما بعد.

توجّهت نحو السهرة، ومعي العصا التي أصطحبها في الليالي خشية الأفاعي، وفي أية لحظة كنت أتوقع قدومك ورائي.

لم أبتعد أكثر من خمسين متراً عن البيت حتى دوّت طلقتان قريبتان من الجهة الشرقية، أعقبهما عواء جريح. الطلقة الثالثة اخترقت أعصابي كنذير. ستبقى في الذاكرة تلك الصرخة التي أنبأتني بندائك الجريح، حين استدرت متجهاً نحو مصدر الطلقات وأنا أطير على جناح النبوءة.

حتى هذه اللحظة يستعصي عليّ الإدراك فيما حدث. من أين هبط علي ذلك الإحساس التخاطري بأنك المستهدف؟ وكيف كنت أطير فوق الأراضي والأعشاب نحو حقل الرمي الذي دوّت فيه الطلقات؟

آن وصلت إلى مزرعة الجنرال القريبة من البيت كان الحرس العسكري قد أنهى مهمته.

صرخاتي وأصواتي الداوية وأنا أقتحم المزرعة ولا من سلاح سوى العصا، ضاعت في فضاء أصمّ. كنت في حالة تتوازى مع الجنون.

ـ أيّها الوحوش. أي ذنب؟ ولماذا؟ أما كفاكم ما فعلتم بالوطن حتى وصلتم إلى الحيوانات البريئة؟

ما كنت حزيناً وأنا أراك مُجثى ومدمى على حافة الساقية،

ودمك مازال ساخناً وقلبك ينزف، بقدر ما كنت مجتاحاً بقهر الرجل الأعزل سوى من عصاه.

كانت الأسلحة بعيدة خارج البيت.

بهدوء واستسلام كنتَ نائماً هناك بين الأعشاب الملطّخة بدمائك.

لكم بدا جسدك حارّاً وثقيلاً وأنا أحملك بين أحضاني، كطفل دام، إلى مدفن حديقة البيت. وأنا أواريك ثرى الحديقة التي لعبت فيها أقسم الغضبُ الهائج بأن دمك لن يذهب هدراً.

بعد أن فرغت من دفنك، وأنا مبلل بالعرق وآثار دمك على ثيابي، استلقيت قرب قبرك فوق التراب الحارّ، محدّقاً في سماء منطفئة.

كنت منهكاً ومجوّفاً كهذا الفضاء المفتوح.

الآن أستعيد زماننا القديم، الحي، النابض، الحميم، والذي مضى إلى غير رجعة، عبر انخطاف برقي يقاس بالثواني. واللحظة لا شيء سوى العزلة والفراغ.

الأعداء على مرمى طلقة، وأنا أعزل، سوى من الغصّات الخانقة والبكاء على أطلالك في هذا الهزيع الأخير.

كانت حكاية مؤسية، كنتَ المغدور فيها وأنا المُهان، ومن أجل التطهير كان لابد أن تُروى.

حكاية عن ثلاث طلقات اخترقت جسدك الرشيق، البريء، لاجتيازك عتبة المزرعة المحرّمة، أما الرابعة فكانت مدّخرة لجسد الوطن ـ البحر.

المجرّات

«أيّها الموت. أيّها القبطان العجوز حان الوقت. فلنرفع المرساة. هذا البلد الكئيب يبعث فينا السأم. أيها الموت فلنُبحرْ».

بودلير

1

قبل ثلاثين عاماً قرّر وهيب الساهر الزواج في أعقاب جلسة سرّية بينه وبين نفسه. كان شاباً طموحاً، مندفعاً نحو مسرّات الحياة في زمن كانت الدنيا فيه تنبئ بالأمل، والتوق والمستقبل لشباب مفعم بالحماسة الوطنية وشمس الثورات وتغيير العالم.

ولأمر غير مستكنه، ربما كان منشؤه التعويض عن البشاعة العضوية والاعتزاز الداخلي بالنفس، أو لمصادفة رومانسية، تزوج وهيب الساهر شابّة جميلة في أعقاب حكاية حبّ ريفية، كان لها صدى واسع المدى في بلدته عين الريحان المواجهة للبحر.

لكن ذلك الحب الحميم انقصف بضربة قدر، يوم ماتت الزوجة في أوج صباها بمرض الحمى الدماغية وهي تضع مولودها البكر الذي لم يعمّر طويلاً.

في مساء الموت وما تلاه من أيام، صُعِق الزوج من الحدث الجلل. هبط على روحه حزن بلون الظلام.

قال حزنه الأسود: ليكن حبّكِ أيتها المرأة الحميمة مقيماً في قلبي إلى أبد الآبدين. ومن بعدك لتحرّم النساء على وهيب الساهر.

ثم عَبَر الزمن فوق صهوات جياده السريعة.

ولينسى الرجل كآباته ويواريها المدافن، اندمج في عمله كمدرس نهاراً، وفي الليالي يتواسى مع حفنة من الأصدقاء بالسمر وأخبار الدنيا والشراب والمقامرة المحدودة حتى الساعات الأخيرة من الليل.

لكن وهيب الساهر، المفعم بالوطنية، رغم أحزانه الخاصة على وفاة زوجته، فوجئ بدعوته الاحتياطية إلى الجيش، في أعقاب حركة انقلابية أطاحت بالعهد البائد.

تهاليل فرح صعدت فوق ضبابات أحزانه. فجأة استيقظ في خلاياه نزوعه الوطني وتوقه للعدالة والحرية.

النزوع الذي ترعرع في ساحاته إبّان دراسته ويفاعته، آن كانت الروح الفتية، من مشارق بلاد العرب إلى مغاربها، تنشد وتهتف في المظاهرات عبر الشوارع والساحات: بلادي. بلادي. لك حبّي وفؤادي.

ماجت في الذاكرة هتافات السجناء والمعتقلين التي كانت تدوي، وهو يردّد معهم: يا ظلام السجن خيِّمْ إننا نهوى الظلامَ.

بعد التحاقه ضابطاً في الجيش لثلاث سنوات، كان فيها مثال الجندي المتفاني والساهر والمستقيم في انضباطه وأخلاقيته، نشبت الحرب مع العدو الغاصب.

بدا إعلان الحرب حالة مفاجئة ودرامية، التعبئة السياسية قبلها كانت أعمق فعالية، لكن القدرة العسكرية المستوهمة قادت إلى فاجعة في فصل الختام.

حين أُعلن النفير وبدأت ساعة الصفر، توجّه الملازم وهيب مع القوات المقاتلة إلى الجبهة للدفاع عن حدود الوطن وصدّ الغزاة. مع فصيلته قاتل بما أوتي من عزم ووطنية وحماسة، لكنه انهزم كما انهزم جيش الوطن في معركته مع عدوه الأقوى.

من سماء مندحرة مغطاة بغيوم فجائعية، هبطت المرارة والأسى على روح الضابط المهزوم.

في مواجهة الصدمة التي زلزلت الوطن وبلاد العرب، بعد الحرب، وتحت تأثير إيقاع الإحباط الفجائعي، قال وهيب الساهر

في الجلسات الخاصة والمؤتمرات شيئاً مريراً وحقيقياً وصارخاً حول التقصير الذي أدّى إلى الهزيمة، فاعتُقل وأودع السجن العسكري.

كانت التهمة الموجهة إليه: ضابط يشيع روح الهزيمة في أوساط العسكر في الوقت الذي يحتاج فيه الوطن إلى اللحمة والنهوض من خسارة معركة في سجل حرب طويلة المدى.

بعد عقوبة خمسة وأربعين يوماً، قضاها في السجن، خرج الضابط وهيب الساهر منكسراً، مطعوناً في وطنيته، منبوذاً على حافة اليأس والخذلان. وبعد سنوات الإحالة إلى الإدارات العامة، والمراقبة الأمنية تخلّوا عن خدماته وسرّح من الجيش ضابطاً مشبوهاً، معادياً للثورة.

2

كان مشوشاً، على حافة اليأس، مزعزع الثقة، وقريباً من تخوم العبث واللاجدوى من أي أمل، حين عاد إلى بلدته ليروي للأهالي الذين توافدوا إلى بيته، وقائع ما جرى له.

وحين سأله سائل من أهل البلدة: لماذا يُدان الشرفاء الذين يقولون الحقيقة الساطعة كالشمس، قال وهيب الساهر باقتضاب: لأن الحقيقة شمس حادّة تجرح إذ يحدّق الإنسان فيها.

قبل أن يغادروه أعلنوا تضامنهم معه. وخلال أسبوع كانت البلدة تعرف ما جرى لابنها الوطني البارّ من غبن ومهانة.

رُويت الحكاية المؤسّية في السهرات والساحات والمقاهي والحانات، لوّنها وبلْوَنها الحُكاة بصور درامية تخطّت حجمها الطبيعي. وفي حميّا الحماسة للرجل الشريف الذي رفع رأس الوطن عالياً، وكوفئ بالإهانة والنبذ، اندفع المُغالون وقالوا بأنه يستحق نصباً تذكارياً يُقام له في ساحة البلدة، تخليداً لشرفه وشجاعته في الحرب. وحين عرضوا عليه الفكرة رفضها. قال لوفد الأهالي بأن

المسألة قد تورّث متاعب نحن بغنى عنها. وإذ طُرحت فكرة مسيرة تضامن وإعادة اعتبار عبر شوارع البلدة. اكتفى الرجل المكسور بالقول: لا. أعتقد أنها قد تفسّر وتؤول كحالة استفزاز وتحدٍّ. المهم أنكم عرفتم الحقيقة وهذا ما يعيد إلي اعتباري ويملؤني بالفخر.

وفي مساء اليوم التالي بوغت الرجل بقرع الطبول والمزامير والهتافات في ساحة الدار.

جاء الأهالي بفرقة من الغجر مع أرغولاتهم وطبولهم وصنوجهم النحاسية وراقصاتهم، وراحوا يملؤون الدنيا صخباً وابتهاجاً، وسط جوقة من فتيان وفتيات القرية انخرطوا في الرقص والدبكة الريفية والزغردات التي خلخلت الفضاء ورددت صداها الوديان المجاورة.

كانوا يقيمون ما يشبه العرس الاحتفالي لابن بلدتهم البارّ والوطني النزيه الذي قاتل في الحرب وانتقد الفساد والتقصير، وخرج من السجن مرفوع الهامة.

عن الشرفة شاهد الساهر المشهد الذي دمعت له عيناه. فرح طفولي يفيض بعفوية من أعماق الروح. فجأة اندفعت زمرة من الشباب المحتفل إلى شرفة البيت. حملوا وهيب الساهر على الأكتاف وراحوا ينشدون نشيده القديم: بلادي. بلادي.

ووسط الساحة اتّقد مرسح من نيران حطب الزيتون، تحلَّق حوله الحشد المحتفل بالرقص وطيران الفرح، تحت أصوات طبول الغجر وأرغولاتهم والشوبشات للبطل الخارج من الحرب مكللاً بالمجد والغار.

3

عبر الأسابيع والشهور، وما تراكم بعدها من زمن، نام الضابط المسرّح في حقول من الوطنية اللامشبوهة، كاتماً في الأعماق ضغناً

سيشرخ في الأزمنة القادمة حلمَهُ القديم الذي ارتسم في الذاكرة صورة لوطن جميل وعادل، أنشد له، وبنى حياته قرباناً للتضحية من أجل مستقبله المزدهر.

في ساحة البلدة لم ينهض لوهيب الساهر نصب تذكاري، يُذكّر بصرخته في وجه الهزيمة، لكن النصب شُيّد في أعماق حفنة من شرفاء أهالي عين الريحان. هؤلاء الذين رأوا فيه، على نحو مبالغ وميلودرامي، ما يشبه أبا ذرّ الغفاري الذي نفاه الخليفة عثمان إلى الربذة في الصحراء. بعد أقل من عام دخلت الحكاية متاهة النسيان عبر فسيفساء البلدة وتشكيلها الصلصالي كأحزاب وطوائف ومخبرين ومقامرين ومعارضين للسلطة وشبيبة موالية، وفتية عبثيين، وموظفين وصوليين، ومحدثي نعمة، وفتية وفتيات ينشدون اللهو والعشق في الليالي المقمرة.

في غمرة هذا التشكيل الطيفي، والهموم والمصاعب التي تتوالد مع كل فجر لهاثاً ودواراً حول قسوة الحياة ومراراتها المعيشية في تأمين الخبز والوظيفة والسكن ومواجهة الأمراض والزواج، في عالم بدأت تسوده الرشوة والفساد وموت الضمير والقانون، انزاحت قضية وهيب الساهر إلى الهامش متحولة إلى ذكرى قديمة.

فوق هذه المجرّات الملوّنة، الملتوية بدروبها الغامضة والخطرة، والمظلّلة بنجوم السعد والنحس، فكّر وهيب الساهر وتساءل: والآن ما العمل؟

كانت الأيام رتيبة، مضجرة، وبدت العودة إلى التدريس حالة من النكوص لرجل بدا أنه بلا أمل ولا مستقبل، بعد أن تحطّم كبرياؤه وسُحِق كما حشرة.

على شاشة ذاكرته عَبَر المشهد الحزين لوفاة زوجته الجميلة، بعد عامين من الزواج. الزوجة التي أحبّها بشغف روحي آل إلى

خطفها سرّاً في ليلة خريفية بعد رفض أهلها وممانعتهم، وتهديد أخيها الأكبر برميه بالرصاص إن هو اقترب من المنزل.

حين بُلّغ بدعوته الاحتياطية إلى الجيش للدفاع عن الثورة، تذكّر نشوته العارمة وهو يودّع طلّابه، معلناً لهم أن ثورة الفقراء بحاجة إليه في هذه البرهة العصيبة من تاريخ الوطن.

ثم عَبَرت السنوات الثلاث. السنوات التي تتخايل على الشاشة كالظلال، إذ نَذَر نفسه وجسده لحماية الثورة. ليلاً ونهاراً كان مثالاً للضابط الوفي، المفعم بالحماسة والأمل. أصابعه في الليالي على زناد بندقيته، ساهراً حتى مطالع الفجر.

لكن كما في كابوس تغيّر المشهد فيما بعد.

مرّت على سفوح ذاكرته وقائع حرب الهزيمة، وفلول المندحرين. شتات الرجال المحطّمين الهائمين على وجوههم فوق الهضاب وعبر الأودية. جنود وضباط مشرذمون ومذعورون بين الغبار والتعب والعرق والعطش والجوع وخفقان الفزع والجراح.

مشهد مأساوي، يورث الغيظ والمرارة والخذلان الروحي، يُستعاد الآن في لياليه الأسيّة.

هوذا الدونكيشوت العربي، ببزته الخاكية وسيفه المنكسر يندحر. يهوي ممرّغاً في الغبار وعار الهزيمة.

صفحة سوداء من تاريخ معتم، تنطوي.

في زاوية مظلمة من بيته المطلّ على أفق البحر، وهو مطوّق بعزلته الهامشية، شديدة البرودة والقهر الداخلي، قال السيد الوطن لوهيب الساهر: وداعاً. لي ربّ يحميني أما أنت فشيء فائض عن حاجتي.

آنها أدرك الرجل المخيّب والمخذول أنه امتُصّ كإسفنجة ثم قُذف به كنفاية.

من عينيه انحدرت عبرات حارّة. بدا الآن في مرايا نفسه فارغاً، مجوّفاً شبيه مغارة مهجورة غطّتها خيوط عناكب.

وفي ذلك المساء الصيفي اللا يُنسى، بكى بإيقاع تراجيدي، امرأته المفقودة، ووطنَه الضائع، ونفسه. قالت الحالة التراجيدية: هباء في هباء. أنت أيّها الحمار المخدوع. ما في رأسك ليس أكثر من رائحة برازٍ قديم.

4

في الصباح نهض الرجل حيوياً، نشيطاً كعادته أيام الجندية. قام بحركات سويدية وتمرينات رياضية في صالون البيت الواسع ذي الغرف الأربع، والقائم منفرداً على تلة في أطراف بلدة عين الريحان حيث يرى البحر من الشرفة الغربية، فانتعشت خلاياه وصفا ذهنه.

وهو في المطبخ يعِدّ قهوته الصباحية داهمته حالة تبوّل. في المرحاض، بين وشيش البول، هبطت عليه فكرة سريالية مفاجئة. مع آخر نقطة من بوله اتخذ قراره: غداً يبدأ زمن آخر. من الشرفة المطلّة على حديقةٍ زُرعت فيها أشجار المشمش والليمون والرمان، وهو يحتسي قهوة الصباح ويدخّن، تصوّر راية ملوّنة تخفق فوق سطح البيت.

راية كُتب عليها بحروف حمراء وبرّاقة: وهيب الساهر رجل وطني شريف، طُرد من الجيش لنزاهته وتضحيته وصراحته.

بين ظلال الشعور واللاوعي المتشابكين، لاحت فكرة الراية بديلاً فولكلورياً عن النصب التذكاري المقترح من أهالي البلدة.

في ذلك الزمن كان الرجل مأخوذاً بتيارات الحنين نحو ماضٍ ستُطوى صفحته فيما بعد، متحوّلاً إلى أرشيف من الذكرى والأطلال والخدائع الطفولية.

بعد ظهيرة يوم خريفي، ووهيب الساهر يستريح في قيلولته على ديوان الشرفة، فاجأه صوت يناديه من وراء بوابة الدار.

ـ سليم مرزوق. اللعنة. ما الذي أتى بك يا شرموط في هذا الوقت؟

هبّ مرحّباً وتعانقا.

ـ الصديق يا حبيبي يهبط وقت الضيق.

عبر لحظة خاطفة خيّل للساهر أن هبوط سليم مرزوق في هذا الوقت الصعب رحمة إلهية انبثقت من غيب إبليسي، هذا الوغد الذي يعرفه أيام الحياة في العاصمة، عبر أوكار القمار والنساء والليالي السرّية.

ـ وصلتني أخبارك بعد التسريح. أنت في ضائقة وأخوك سليم لا ينسى الأصدقاء.

بعد الترحيب استأذن المرزوقي.

ـ معي ضيوف يرغبون بالتعرف عليك.

وثب المرزوقي إلى الشارع حيث ركن سيّارة المرسيدس.

حين عاد حاملاً صندوقاً من الويسكي والمالبورو فوجئ الساهر بامرأة جميلة، طويلة، ترتدي الجينز ترافق سليم. ظهورها الواثق بدا رجولياً لكن أنوثة وجهها وشعرها المصبوغ بالأوكسجين وبريق عينيها وشَتْ بعهر مستتر.

ـ إيلينا سكرتيرتي العظيمة. واستطرد باتجاه المرأة الرشيقة: صديق العمر وهيب الساهر.

ـ أهلاً. أهلاً. قال الساهر مرحّباً، ومصعوقاً بالمفاجأة.

5

حتى ساعة متأخرة من الليل وهُمْ على مائدة العشاء، تحت سماء ندية ونجوم كاللآلئ، فوق الهضبة المطلة على البحر، نُثرت

حكايات قديمة وأفكار جديدة ومشاريع ونظريات، كان قطبها المركزي سليم مرزوق التاجر والسمسار العريق، والضابط المسرّح قبل قدوم وهيب الساهر إلى العاصمة. رجل الأعمال والمهامّ السرّية المهيأ لوزارة مال أو اقتصاد كما تنبأ له وهيب الساهر، فيما بعد.

في بداية الحوار أشاد المرزوقي بمناقب وتاريخ صديقه الوطني، كاشفاً للمرأة الجوهر النقي والصلابة الداخلية لرجل لايعرف المحاباة أو المساومة في مواقفه: هذا الوهيب الأصيل دفع ثمن تلك المواقف المبدئية غالياً. واستطرد بعد ثلاثة كؤوس من الويسكي: إنما هذا الرجل مغفّل أو شبه حمار في خاتمة المطاف. فوجئت المرأة بالعبارة الناشزة. لكن ردّ الساهر المتسائل هازئاً: ليش يا خرا؟ أوحى لها بعمق وألفة ما بين الصديقين حتى في قسوة عبارات الاتهام والمناجزة اللدودة.

ـ لأنك لست ابناً بارّاً لهذا الزمان. زمان أولاد الحرام كما تسميه. أنت رجل أزمنة انقرضت يا صاحبي. تريد أن تكون نظيفاً في زمن الوحل والتلوّث. وفيّاً في زمن الخيانات والغدر. نقي الضمير في عصر دفنت فيه الضمائر. هذه المفاهيم الجاهلية والرسولية تقود إلى هاوية الفقر والعزلة والنبذ. نحن الآن في عصر الذئاب المفترسة، وأنا أتيتك بكفن لتطوي به جثة عصرك الدرويشي.

ـ أعرف. أعرف جيداً منذ زمن طويل رؤاك الإبليسية. لكن التاريخ النظيف والنقي لا ثمن له.

ـ عن أي تاريخ تحكي؟ تاريخك ومواقفك! لقد باعوك في سوق المال والسلطة. أنت وأمثالك ليسوا أكثر من كباش يضحّى بها في مواسم الأعياد. حتى الآلهة والأنبياء دخلوا السوق في هذا العصر. لاشيء محرّم في البازار.

خلال السهرة جاهد وهيب الساهر في الدفاع عن تاريخه

القديم ومبادئه ومثله العليا، في مواجهة صديقه المرزوقي الذي تحوّل إلى رجل واقعي يعرف من أين تؤكل الكتف، كما يعرف هبوب الرياح فيميل معها ويغتنمها في اللحظة المؤاتية.

بدا دفاع الساهر عن الطهرانية والنقاء والبراءة في مرايا المرزوقي رجعاً بدائياً لزمان ولّى، ولإنسان ينتمي إلى عصور ماوراء التاريخ.

قال المرزوقي: ألا ترى كيف يدوس العجل الذهبي على ألواح موسى وتابوت عهده. الميراث اليهودي يُبعث الآن من ركام الأنقاض ويتعولم يا كركور.

سليم مرزوق الذي تحوّل مع العصر المسمّى في قاموسه بعصر الواقعية الذكية، كان هو الآخر، في فجر فتوته، مناضلاً وثورياً في صفوف الحركة الطلّابية في الجامعة. عبر تيار ذاكرة وهيب الساهر، تراءت صورة صديقه القديم وهما في الجامعة ينخرطان في المظاهرات والإضرابات. يوزعان المنشورات السرّية نهاراً في الشوارع، ويُعتقلان مع رفاقهم لينالوا جميعهم الإهانات والضرب بالعصي والصفعات تحت إيقاع شتائم الآباء والأمهّات، والاتهام بالفوضى والعداء للوطن والسلطة.

بعد إطلاق السرّاح والتهديد بالفصل من الجامعة، كانت الكدمات والرضوض تُرى على الوجوه والأذرع والصدور، كأنما هي أوسمة للعنف الوطني.

وهيب الساهر وسليم مرزوق كانا يتوجهان غبّ ذلك إلى أقرب حانة شعبية لشرب البيرة، وهما في حالة عبثية من التطهير واللامبالاة والشعور الداخلي بنشوة النصر. المرزوقي وهو يشير إلى آثار الكدمات على ذراعه ووجه صديقه يقول مباهياً: هذه الأوسمة ستحرر البلاد من قبضة الديكتاتورية العسكرية.

وهيب الساهر المعروف بسفاهته يطلق بذاءاته في أعقاب

جرعة من البيرة: ستحرر طيظ أمك يا ابن السافلة. هؤلاء الذين خرجوا يوماً من الثُكنة واستطابوا ملذات السلطة سيتذابحون في الزمن القادم في الشوارع وعلى أبواب وزارة الدفاع إلى يوم القيامة. سنرى ذلك. اسمع يا مرزوقي المغفل: حين تنام مع امرأة جميلة وشهية يبقى طعم ورائحة جسدها الشيطاني في عروقك وخلاياك. تأخذك وأنت مسحور أو منوّم إلى كهفها المظلم. وهناك تطلسمك وتدخلك في العبق والروائح والتيه والجنون ورياح الجسد فلا تقوى على المغادرة إلى أبد الآبدين. هذه هي السلطة. إنها واللذة الجنسية صنوان من جوهر واحد.

ـ ماذا تعني؟ وما هو وجه المقارنة؟

ـ الغريزة. غريزة التملك والسيطرة.

ـ أية شطحات فلسفية بائسة! قال سليم مرزوق.

واستطرد: يا رجل. هناك شعب. شعبنا لا يقهر. قال العبارة بانتفاج تحت بخار البيرة التي اجتاحت المسام.

هزئ الساهر من العبارة ورنينها الفخم: حين يكون الشعب شعباً موحّداً. لا قبائل أو عشائر أو طوائف أو أحزاباً متناحرة، وكلٌّ يغني على ليلاه.

في النهارات والأماسي واستراحات الجامعة وبيتهما المشترك، كانت الحوارات حادة، والصخب عالياً، والمواقف تتباين وتتقاطع حول الأمل والمستقبل. بدا واضحاً أن وهيب الساهر يتوجس من العسكر والديكتاتورية، في حين أن المرزوقي كان يراهن على حماسة جياد العسكر من الرفاق والوطنيين الشرفاء لإنهاء الفساد والفوضى في أوساط السياسيين المناورين والانتهازيين.

وهكذا بعد عامين غادر سليم مرزوق الجامعة، وانتسب إلى الكليّة العسكرية.

وهو يودّع صديقه الساهر في حديقة الجامعة قال لصديقه

بنوع من الشموخ الدرامي: سألتحق بمدرسة الرجال الذين سيغيرون وجه التاريخ. بادهه وهيب الساهر ساخراً: أما نحن يا صاحبي فسنبقى في كلّية الإناث لنرشّ الزهور والعطور على موكبكم التاريخي القادم.

6

على مائدة العشاء انفرش بساط من الزمان القديم والراهن.

بدا التناقض القديم أكثر حدّة الآن. كان يشبه هاوية تفصل صديقين، هما في موشور ما، على طرفي نقيض. أحدهما الآن راسخ فوق أرض صلبة بينما الآخر يترنح فوق أرض من السّباخ والغرين.

لاحت المسافة الماراثونية التي اجتازها سليم مرزوق، من صرخة الثورة واستحالة قهر الشعب، إلى ما هو عليه الآن، عبر أكثر من ربع قرن، تتوازى في الزمن الأسطوري والرمزي مع اعتقال وهيب الساهر في السجن العسكري وحالته الراهنة وما آل إليه.

بين فسحة هذين الزمنين ظل المرزوقي وفياً للصداقة الحميمة التي جمعت بين الرجلين في أوقات الشدّة، وأزمنة بريق رايات الأمل التي تمزقت وتطايرت في الريح.

في أعماق الرجل المتقمص لروح إبليس الشيطانية بقيت في الزوايا المظلمة ومضة آدمية اسمها: الوفاء.

خلال السهرة كانت المرأة السكرتيرة تعوم في الصمت والمراقبة. تشرب وتدخن. في أعماقها لعلّها تساءلت: تُرى ماالذي يجمع النقيضين الآن؟

هي التي تعرف عالم عشيقها الموبوء، وإيغاله في الصفقات

التجارية ذات الطابع الدولي مع الشركات العالمية، وصلاته الحميمة مع المسؤولين في السلطة.

حين سأل وهيب الساهر صديقه القديم عن كيفية الخروج من هذا الفراغ الذي يعانيه، قال سليم مرزوق: أن تخرج من حظيرة الحمير المسوّرة بالطهارة!

واستطرد: منذ ثلاث سنوات وأنت تعيش على حافة الفقر، تجتاحك تيارات الحنين إلى ماضٍ عفا عليه الزمن. هل ستخرج من ذلك الماضي أم لا. أسألك الآن؟

ـ إلى أين أيها المعاصر؟

ـ إلى العصر الجديد. لقد علّمونا وقرأنا الكثير عن ماركس ولينين وغيفارا والثورات الاشتراكية، لكننا لم نقرأ بعمق فلسفة ميكيافيللّي الواقعية.

من بداية الخليقة حتى الآن، وإلى أن ينقرض الإنسان، وتعود الطبيعة إلى توازنها البدائي الأول، والمواجهة قائمة بين الملاك آدم وأخيه إبليس الذي عصى.

وفي غفلة أو إدراك من الخالق عبر العصور والحقب تماهى الأخوان. حلّ أحدهما في الآخر، وتقمّصا الأزمنة وهما يتبادلان الأدوار على المسرح.

وإذ حكى الساهر عن القيم والوطن والعدالة والكرامة الإنسانية ونكران الذات، بدا منفعلاً بجراحه وكبريائه، مجتاحاً بضوضاء أزمنته الماضية وتاريخه الوطني، وضّح المرزوقي بأن الوطن والقيم والتاريخ تختزل الآن عبر مفردات عالمية اسمها: الاقتصاد والمال والتجارة والسوق.

ـ أنا لست وطنياً إذن! صرخ وهيب الساهر صرخة خلخلت فضاء السهرة.

قال المرزوقي: نخبك ونخب وطنيتك الطاهرة.

رافعاً الكأس إلى مدى ذراعه.

أشعل سيجارة. نفث دخانها عبر فضاء الشرفة:

ـ اسمعني جيداً يا صاحبي بعيداً عن الانفعال. أن تكون وطنياً أو لا تكون هذا يتساوى، في هذه البرهة من عصرنا، مع هذا الدخان المتلاشي.

واستطرد قبل أن يحتج الساهر الذي انعقد الغضب في جبهته وبان في احمرار عينيه:

ـ أنت وأمثالك من الجيل الموشك على الانقراض والذين دُمّروا وتحطموا، ما عدتم أكثر من أنتيكات عتيقة على رفّ التاريخ المغبّر. القطار غادركم وترككم مهجورين في محطة قديمة اسمها: رجع الحنين إلى أطلال ليلى العامرية. انتهى عصر الحب العذري وبدأ زمن الحب الشهوي. هل تفهمني؟

كان وهيب الساهر منكباً على سطح المائدة ورأسه المصدّع بين راحتيه، وهو يسمع أصداء المرثية التي ينشدها صديقه المرزوقي.

وليخفف من ثقل الضغط المرّ الرازح فوق قلب صاحبه قال سليم: هوّن عليك أخي وهيب. أزِحْ قليلاً هذه الكآبة. أنت لست مسؤولاً عن هذا الخراب وحروب النهب واللهط والمافيات. قد نكون الآن في ساعة الذئاب والضباع الكاسرة داخل هذه الغابة، لكن الأرض ماتزال تدور، والتاريخ، كما كنت تقول دائماً، لم يتوقف هنا. بصحتك وصحّة الأيام السعيدة القادمة.

بعد أن شربا النخب قال الساهر هازئاً: الأيام السعيدة! أين هي؟ سأل بسخرية مرّة. ضحك المرزوقي ضحكته الإبليسية الصاخبة: هنا. هنا. في هذا البيت الجميل. حيث ستخرج من

عزلتك وكهفك وأفكارك البالية، مودّعاً عصور الرسالات النبوية وحروب التحرير والعدالة إلى الأبد.

قبل ختام السهرة عرض المرزوقي على صديقه فكرة مشروع مقمرة صغيرة في البداية تكون شبه سرّية. نواة لنادٍ أو بيت يحميه المرزوقي من المداهمات بأساليبه الخاصة وعلاقاته النافذة في الدولة. كانت الفكرة قد اختمرت في ذهن سليم مرزوق قبل شهرين من قدومه لزيارة صديقه، حين استعاد في ذاكرته أزمنة المقامرة في العاصمة أيام الجندية، مراهناً من خلال موهبته الإبليسية على مكامن ونقاط الضعف في أعماق وهيب، المقامر القديم، ورياح الهوى التي يميل معها حين سيلوّح له بالمشروع، كمن يرمي طعماً شهياً لسمكة جائعة.

ـ نادٍ للقمار في بيتي يا ابن الشرموطة؟ صرخ الساهر غاضباً.

بوغت المرزوقي بدوي الصرخة.

ـ ما الذي يبقى مني إذن!

ـ الإنسان ليس ملاكاً. عمرك ضاع هدراً ومع ذلك ماتزال مصرّاً على اجترار علفك في حظيرة الماضي. سأسندك وأحميك وأموّلك وستكون إيلينا المشرفة على الأمور. سآتي إليك بمقامرين مسؤولين نافذين. فكّر بالأمر على مهل وفي النهاية حرية الاختيار متروكة لك.

أشار الرجل غامزاً المرأة كي تأتي بحقيبة السامسونايت من السيّارة فامتثلت. بحركة تاجر عريق ضغط على أزرار الحقيبة السوداء فانفتحت.

من الرزم المرصوفة بالدولارات تناول خمسة آلاف دولار وضعها في مغلّف، وحتى لا يجرح مشاعر صديقه المبهوت من المشهد دخل إلى غرفة النوم ودسّها تحت الوسادة.

قبل احتجاج الساهر ورفضه وإطلاق رشاش بذاءاته اعترضه المرزوقي كاماً فمه: اسمع. هذا المبلغ هدية ورمز لصداقتنا التي لاتُنسى. قد تسميني لصاً أو ابن قحبة أو سمساراً باع مبادئه في هذا البازار السائد وخان تاريخه القديم الناصع. لا يهمّ بماذا ستَسِمُني. لكن إذا لم تقبل هذا المبلغ، وأنت الآن في الضائقة، من صديق يكنّ لك المودة والوفاء، سواء اقتنعت بمشروع المقمرة أو لم تقتنع، حتى لو رميت به إلى البحر أو أحرقته، سيكون رفضك لهذه الهدية معادلاً لحرماني من دخول بيتك إلى نهاية الدهر. وحتى أكون واضحاً وصريحاً معك للمرة الأخيرة أقول لك: هذه براءة ذمة لصديق أرى فيه وجهي الآخر الذي كان نقياً قبل أن أغوص في الوحل. أنت تفهمني الآن!

نهض المرزوقي مودّعاً بعد أن شرب النخب الأخير لصديقه. تعانقا بما يشبه مشهداً درامياً وهما على حافة البكاء.

7

لعل الموشور الآخر لوهيب الساهر والمستتر في الظلال الداخلية، والمعرّض للضوء فيما بعد، كان موشور المقامر القديم.

لذا يبدو من الصعب كشف الطبقات النفسية للأعماق البشرية، والوصول يقيناً إلى التناقضات والميول والأهواء الذاتية الراقدة في تلك الأعماق المضطرمة.

سيقع الرجل، قبل الشروع في افتتاح المقمرة، فريسة اختلاطات وجدالات نفسية مربكة. كما ستتموج في رأسه أسئلة وصراعات وأحلام بأطياف سوداء وحمراء ووردية، عبر مدّ وجزر لرجل تاه في البحر ولا يدري إلى أين سيقذف به الموج. الماضي المضيء. ضوضاء الناس. الأصدقاء والبلدة التي استقبلته كبطل

خارج من الحرب واقترحت تشييد نصب تذكاري لهذا الجندي غير المجهول. والآن. هو المهمّش، المنسي، والمحطم كما قال له المرزوقي. الإنسان المعزول واللا أمل له.

ـ أنت يا وهيب الساهر رجل فائض عن حاجة الوطن والعالم. إسفنجة امتُصت ثم قُذف بها إلى المزبلة.

الساحر الإبليسي، المولود من ضلع الشيطان، وسوس له. قال له أيضاً بأن الدنيا تغيرت. والبلد غابة ذئاب. وقال له إن ابن هذا الزمان هو من يصلي وراء عليّ حين تقام الصلاة ثم لا يلبث أن يهرع إلى مائدة معاوية حين يُمدّ سماط الطعام واللهط. هذه هي الدنيا الآن.

8

عبر هذه الحكاية التي نحاول روايتها بنوايا نزيهة، بعيداً عن أي حكم قضائي، أو إدانة مسبقة فيما إذا كانت وسوسات المرزوقي أم النوازع الداخلية للساهر أم هما معاً، هو الذي أودى إلى ما حدث فيما بعد في افتتاح المقمرة.

في البداية كان الصالون الواسع ملتقى مقامري البلدة من ذوي الدخل المحدود.

بدا الأمر نوعاً من التسلية أو التحلية الافتتاحية. فيما بعد، إذ شاع الخبر وانتشر إلى القرى والبلدان المجاورة، وتوافد المقامرون المحترفون، اتسع الصالون ومدّت الطاولات الخضراء. ومع مرور الأيام وليالي السهر وبدايات تفاقم الخسائر والأرباح تحوّل مناخ اللعب مزيحاً أبناء البلدة من ذوي الدخل المحدود، باتجاه الغرباء من الأثرياء والتجار والسماسرة ومحترفي القمار.

ستروي الشائعات على لسان اللاعبين من أهالي عين الريحان الذين أفلسوا، أو تحوّلوا إلى متفرجين، وعلى ألسنة نسوة اللاعبين، وحتى الأهالي والمخبرين، بأن نادي قمار وهيب الساهر تحوّل إلى وكر للخراب والفساد ودمار العائلات.

رووا بما لا يخلو من المغالاة والمبالغة بأن مقامري البلدة قبل إفلاسهم وخسائرهم، باعوا أو رهنوا ما ادَّخرته نساؤهم من خواتم وقلائد وأساور وسلاسل ذهبية ممهورة بالأسماء وذكريات أزمنة الأعراس والحبّ. تلك الذكريات التي كانت مخبأة في علب المخمل والأدراج رمزاً للزواج المقدس، وادّخاراً للنوائب في حالات الضيق والجائحات السوداء المباغتة.

حالة المقامرة راحت تستشري كوباء في البلدة. تنامت الأخبار والوشوشات حول نساء مشبوهات غريبات هن عشيقات أو مومسات للمقامرين المحترفين الوافدين من مدن أخرى، يشاركن في اللعب والإثارة وإغواء رجال البلدة.

هذه الحالة الاستثنائية، والتي لاعهد لعين الريحان بمثلها، ولّدت لغطاً وشجارات عائلية بلغت حدود الطلاق داخل بعض الأسر.

بيت الدمار العائلي، ونادي التخريب والفساد، ووكر الفحش والدعارة. كانت العبارات والاتهامات والإدانات تطلق بلا حساب استنكاراً ورفضاً. وشاع في البلدة أن بعض النسوة السفيهات، اللواتي يتردد رجالهن على وكر المقامرة، من أصدقاء الساهر، تشاورن في مشروع إغارة على البيت، ورجمه بالحجارة على أنغام صفائح من التنك وطبول الطناجر لإثارة فضيحة بجلاجل تتجاوز أصداؤها بلدة عين الريحان إلى البلدات المجاورة.

وهيب الساهر، المشارك في اللعب في أغلب الأوقات، بدأ يزيح لاعبي البلدة والمتفرجين جرّاء الشائعات المستشرية، كما نحّى صغار اللاعبين من ذوي الدخل المحدد اتّقاءً للهيجان الأهلي وبداية

الكوارث العائلية والإفلاس. ومن خلال ذلك فتح المجال لذوي الدخول العالية والغرباء من المحترفين وأصحاب الحقائب المرصوصة بالعملات الصعبة، أولئك الذين وجّهتهم إليه بوصلة صديقه سليم مرزوق.

مع سهر الليالي الذي كان يستمر بشكل شبه يومي حتى الفجر، بدأت الحالة الصحية والفيزيولوجية للساهر تتدهور، شحوباً في الوجه وهزالاً في الجسد، وغوراً في العينين بحيث اضطر إلى استخدام نظارات طبية. حدث ذلك جرّاء تناقص ساعات النوم حتى في النهار مع الإدمان على التدخين والخمرة ونقص شهية الطعام.

إلى جانب التدهور الفيزيائي، بدأ مزاجه يعتكر عبر ردود أفعال عصبية في مواجهة أي موقف تافه لا يتسق مع مزاجه الحادّ من أحد اللاعبين. ما كان ليتورع عن استخدام أقذع أنواع الشتائم، حتى وصلت به بعض الحالات إلى قذف أحدهم بكأس ويسكي أصاب بنثاره الجدار بدلاً من وجه اللاعب الذي انسحب وغادر البيت.

مقابل هذا الوضع كانت حالته المادية تواصل صعودها.

فتح حساباً في أحد المصارف، واشترى سيارة بيجو فرنسية، واستشار مهندساً لرسم مخطط فيلّا كبيرة في أقاصي الجبل، بعيداً عن الأنظار واللغط والفضول والتجسس على زوّار اللعب في الليالي.

داخل فضاء هذه التحوّلات الجديدة والغريبة للرجل الجديد بدا كأن الآخر القديم يغيب ويتوارى في الغياهب.

لعل ذلك الآخر المغيّب كان يكتفي بالمراقبة وهو منكفئ بين ظلال اليقظة والحلم. يرى من ثقب الظلام الراية الرسولية المسكينة التي رُفعت عالياً فوق سارية البيت وقد تهلهلت بعد أن مزقتها الرياح والأعاصير وهي تقاوم الزمن وتعاقب الفصول.

ما كان هناك وقت للسؤال: لماذا حدث ذلك؟ وهل ما جرى يكمن في قوّة السحر الشيطانية التي يمتلكها سليم مرزوق؟ أم هو كامن في جذر الطبيعة البشرية المجبولة على غريزة الامتلاك والشهوة وحب المال؟

أم أن هذا الساهر هو الوجه الآخر للمرزوقي النائم في ظلمات النفس وهو يستيقظ الآن؟

9

في أصيل شتوي فوجئ الساهر بإيلينا.

كانت الليلة ليلة استراحة من عناء سهرات اللعب. على الشرفة كان يتناول قهوته المعتادة التي هيأها له عبد الله خادم اللاعبين في السهرات، والذي كان يدعوه بعبّود تصغيراً واحتقاراً.

في ذلك الأصيل كانا يتسامران حول أخبار البلدة وآخر الشائعات والنمائم وتقارير المخبرين. الأخبار التي يتشممها عبّود كأي سلوقي مدرّب لينقلها إلى معلمه مبهّرة وطازجة آخذاً بالحسبان المزاج الرائق أو العكر لسيّده وولي نعمته، والموكل بحراسته ببندقية صيد ورثها الساهر عن جدّه المتوفي منذ اثنين وثمانين عاماً.

قبل أن تَفِد إيلينا ويُهرع عبد الله لفتح بوابة الدار، بدا الساهر قلقاً.

كان قد تخطى الشائعات والروائح الفضائحية والوازع الأخلاقي. ما كان يؤرقه في الأعماق هو عنصر المفاجأة ومداهمة الأمن الجنائي، والتوجس ألا يكون البيت محمياً كما طمأنه المرزوقي.

من طرف خفي أوحى لعبود الخادم بهذه الهواجس من أولئك الأوغاد الذين لا يشبعون رغم الرشاوي والرواتب الخاصة التي تصلهم سرّاً.

عبود الخبير بأسرار البلدة قال بأن المخبرين الأمنيين في البلدة هم العيون الحمراء، وهم ليسوا أكثر من حفنة مرتزقة مثل جقلان الوادي الجائعة بحاجة إلى بعض فضلات العظام.

واستطرد ناصحاً الساهر: مئة ليرة يا معلمي لكل منهم. تأمن عواءهم ويرفعونك إلى مقام الملائكة.

في غمرة هذه المناجاة بين الساهر وخادمه قرع جرس البوابة الخارجية.

انهلع قلب المعلم. قال لعبد الله: استطلع يا عبّود من القادم.

مفزوعاً وهو يرتعش عائداً قال عبود: سيدي على الباب امرأة. سيارات فخمة وغريبة تقف في الساحة.

نهض الساهر لاستقبال المرأة: إيلينا. نوّرت البيت. أهلاً. أهلاً.

بمودة وحميمية تعانقا. قبل أن يسألها عن سليم والأحوال أسرّت له كي يصرف الخادم: في الخارج ضيوف مهمّون من النوع الخاص الذي أخبرك عنهم سليم.

بغمزة خاطفة وإيماءة اختفى عبود من الباب الخلفي شبيه أرنب مذعور باتجاه غرفة المؤونة المخصصة له.

اختصرت إيلينا المسألة وهي تختلي بالساهر: ضيوف دسمون ومليئون ومهمّون من أصدقائنا في العاصمة. هم لا يرغبون في الإفصاح عن شخصياتهم يتنادون في مثل هذه الحالات الخاصة بالأبوات: أبو الهيثم، أبو الحكم، أبو الوليد، أبو الربيع، أبو الفاتح وهكذا... سأعرفك بهم بهذه الصيغة. بيني وبينك أبو الهيثم إنسان مهمّ ومسؤول وذو مقام كبير. هم يعرفونك من خلال سليم وهو من

أوحى لهم بهذه الزيارة النائية بعيداً عن أية رقابة. ليسوا محترفين بقدر ما هم هواة سهرات ولعب وفرفشة. معنا المشروبات والساندويش واللحوم والخضار والدخان والفواكه. المهم تخصيص غرفة منفردة للعب ومنع دخول أي إنسان. أنا سأشرف على صندوق الكنيوت والأرباح الجانبية. تعال معي لاستقبالهم.

سؤال سريع سأله الساهر حول حماية البيت سابقاً والآن. طمأنته إيلينا: ألمرافقة المسلحة تحرس البيت الآن.

نزلا درج الشرفة لاستقبال الرجال ـ الأبوات الذين ترجّلوا من سياراتهم.

بحرارة وترحاب، لا يخلوان من التوجس والرهبة، سلّم عليهم وهيب الساهر وتقدمهم إلى صالون البيت.

في البهو الواسع بعد أن جلس الضيوف عرّفته إيلينا بالرجال الخمسة ثم غابت لتحضير القهوة.

من خلال مسح الوجوه والأشكال عبر عدسة عيني الساهر بانت ملامح النعمة والثراء والوفرة، وهذا الثقل الواثق لرجال أنيقين موفوري العافية، مفعمين بالرضا والأناقة وشغف الحياة والغبطة المجانية، وهي تتدفق عبر النكات، أو الخسائر والأرباح سواء في المضاربات التجارية والسمسرة والتوكيلات أو أندية القمار في كازينو لبنان أو مونتي كارلو أو لاس فيغاس.

أبو الهيثم، وهو يدخن السيكار الهاڤاني كان يروي ما يشي بذلك وهو يغرغر في الضحك.

على نحو هزلي روى حادثة عن ابن مليونير خليجي: فرخ في العشرين من عمره. تصوّر أخي وهيب خسر عشرين مليون دولار في لعبة الروليت بلاس فيغاس في سهرة وخرج لا مبالياً بصحبة شقراء أميركية إلى أحد المراقص والبارات. وحين سأله صحافي يمتهن

العمل في إحدى الصحف الفضائحية عن الأثر النفسي لخسارته قهقه ساخراً: ثمن سوتيان أو كيلوت لمادلين الجميلة أهذه خسارة؟

أبو الحكم علّق ساخراً: هذا الفرخ مولود وفي فمه بئر يتدفق بالذهب الأسود.

كان أبو الهيثم يتحدث بثقة الرجل الذي يعرف العالم، والبلدان التي جابها عبر مهمّات خاصة.

كما بدا واضحاً أن الآخرين يكنّون له احترام ومهابة رجل يمتلك أسراراً تطوّقه بالغموض والرهبة.

هكذا بدا لوهيب الساهر وهو يصدر أوامره لأبي الربيع، بعد شرب القهوة، كي يؤتى بالحقائب والمشروبات وعلب الدخان والأطعمة، وتنبيه الحراس بضرورة اليقظة والانتباه.

10

فيما بعد سيتذكر وهيب الساهر، كما في حلم سريالي، تلك السهرة العامرة. لعبة العمر التي لن تتكرر، كما أسماها. لا لأن الخسائر كانت فادحة. وكان هو الرابح الأكبر، ولا لانبهاره من دفق الدولارات التي كانت تتدفق من بطون حقائب السامسونايت، إنما سيُدهش من تلك اللامبالاة الغريبة التي كانت تلوح على وجوه اللاعبين وهم يقذفون الأموال بلا مبالاة على سطح المائدة المستديرة الخضراء، لكأنها حصى بحار التُقطت مجاناً بلا أدنى جهد. أوراق قاءها البحر كما تُقاء الطحالب والأشنيّات على شواطئ هؤلاء الرجال وهم مرتاحون وراء مكاتبهم الدوّارة، يشربون الويسكي والبراندي والشمبانيا، ويدخنون السيكار الكوبي، مطلقين الضحكات والنكات عبر فضاء مكاتبهم الأنيقة وهم يعقدون الصفقات من خلال الهواتف والفاكسات مع الشركات العملاقة وراء البحار، عبر كلمات سرية مقتضبة. شيفرات تتماهى مع السحر

الملائكي للوحي الذي سيهبط بسرعة البرق على مصارف وحسابات هؤلاء الأنبياء المعاصرين الذين يحكمون العالم بقوة وحي الدولار. هم الآن في بيت وهيب الساهر يقامرون في استراحة هادئة بعيداً عن العمل. إيلينا الساحرة والجارية الحسناء في خدمة هؤلاء الأمراء، تقدم الطلبات بحركات آلية تارة، ومسرحية تارة أخرى، في الوقت الذي تشرف فيه على صندوق الكنيوت العائد للمقمرة.

في تلك الليلة وهي تشرف على إعداد المائدة في بهو الصالون، كانت تشيل بسخاء من بيدر الصولدات والفيش الملوّنة المتراكمة كالألعاب وسط المائدة المستديرة.

وهيب الساهر، وهو يلعب بحذر ومكر الثعلب، بدا مأخوذاً ومبهوتاً، كمن أصابه مسّ سحري، وهو يراقب المشهد، مشهد الينبوع المالي الذي لا ينضب متدفقاً عبر بوابات النكات والنشوة والمتعة ورذاذ الضحكات العالية إذ يروي أبو الهيثم عن رحلاته ومشاهداته لألعاب البوكر والبكاراه والروليت في نوادي أوروبا وأميركا.

المقامرات الأسطورية التي لم يشارك فيها لأن مهماته الخاصة والسرّية لا تسمح له بذلك كما يدّعي.

خلال سيرورة اللعب كان الساهر يراقب بهدوء الوجوه والانفعالات وهي تتموج عبر إيقاعات الربح والخسارة. الوجه الجامد والصلب لأبي الهيثم. رجل الغموض والظلال والمهمات الخاصة والخطيرة خارج الحدود ووراء البحار. الرجل الواثق من نفسه وقدرته على التحكم بالمصائر في لحظات احتدام مغامرة الحياة واصطدامها ببغتة الموت.

الآخرون بدوا له تحت شبكية المراقبة أقلّ أهمية وأكثر جشعاً وتهافتاً. لاحوا باهتين، مغمورين في الظلال وراء موشور النور

الذي يضيء ذلك الوجه المجسم والقاسي للسيّد المهيمن على السهرة وأشباح الآخرين.

11

مع أول الفجر رحلوا.

شكروا وهيب الساهر لضيافته وللمناخ المريح الذي خلا من أي اعتكار. أبو الهيثم وعده بزيارة أخرى حين تسمح الظروف والأحوال. ورغم الخسائر الفادحة التي مُني بها بدا باشّاً ومنشرحاً وهو يودّع الساهر.

ـ كانت سهرة ممتعة لا تنسى. قال السيّد القوي.

على عتبة البوابة انفرد بوهيب الساهر. همس له بعبارة ملتبسة وغريبة: لقد ظُلمت فيما مضى. لابد أن تتجاوز المحنة فربّ ضارة نافعة أحياناً. واستطرد: المرزوقي جدار قوي وهو صديقنا ورجلنا إنما احترس منه. إذا وقعت في ضيق أو احتجت شيئاً أخبر إيلينا. الباب مفتوح بلا سليم.

فيما بعد، وهو تحت ضباب الحيرة والبهوت والهواجس، سيتساءل بعد رحيلهم عن مغزى كلمات أبي الهيثم الذي يعرف كل شيء عنه على ما يبدو، لكنه سيبدو عاجزاً عن حل اللغز المبهم في علاقة الرجلين، وعما إذا كان واقعاً في شبكة أو متاهة غامضة ترسم الأقدار تضاريسها في قادم الأيام.

12

بعد فوات الأوان ربما، حين يكون الزمان موحشاً وعصيّاً على الإدراك، سيظل وهيب الساهر فريسة قلق غامض، جرّاء الحالة التي عكّرت لياليه، رغم الأرباح المالية والخرافية التي هبطت عليه في سهرة الأبوات.

وسيفصح لإيلينا وهما في السرير، بعد إحصاء الأرباح، بأن ذلك الرجل القوي الغامض لديه من الأسرار ما يفوق أسرار الملائكة والله عن المخلوقات والكون.

وحين يحاول سؤال المرأة عن سرّ ذلك العرّاب، ستلوذ بالصمت والمراوغة، ملمحة أنها ليست أكثر من وسيلة اتصال بينه وبين المرزوقي وليّ نعمتها وكاتمة لأسراره الخاصة.

كالنار في هشيم يابس ستسري الشائعات في عين الريحان حول لعبة الأبوات في بيت الساهر. وعلى مدى أكثر من شهر لم يحدث في البلدة من وقائع غريبة تستحق الاهتمام واللغط ما هو أهمّ من ذلك الحدث المفاجئ.

كانت كرة ثلج الحكايات والأخبار والهمسات تكبر وتتضخم، وهي تتدحرج من بيت إلى بيت ومن مقهى لآخر، وداخل الحوانيت، وعبر الحسّاد والنمّامين واللاعبين الذين أُقصوا عن اللعب بعد أن أفلسوا واجتاح الخراب بيوتهم وأسرهم.

تنامى الخبر فوصل المخبرين الذين لم يحصدوا شيئاً من الملايين المهدورة، فانثالت التقارير عبر قنواتها السرية حتى وصلت إلى مصبّها في بحر الأمن.

عبود الخادم كان ينقل لمعلمه الأخبار يوماً بيوم، بتفاصيل مثيرة وإشارات تشي بغضب الأهالي وهياجهم مما أسموه: بؤرة الفساد ومستنقع الرذيلة ووكر العهر والفواحش.

نقل إليه خبراً خطيراً مفاده أن رجال الدين وشيوخ البلدة مستاؤون من هذا الوضع اللاأخلاقي، وهذا الوباء الملعون، كما يصفونه في مجالسهم. وأضاف عبد الله مؤكداً بأن إمام الجامع سيندّد ويشير إلى هذه الحالة المرفوضة من على منبر المسجد في عظة الجمعة.

كما روى عبود وقائع حضوره شخصياً لاجتماع في بيت الإمام الذي تساءل باستغراب عما جرى لوهيب الساهر: الرجل الوطني والنزيه. ولماذا تلوّث وانحط إلى الدرك الأسفل؟ وكيف ركبه الشيطان والوسواس الخنّاس فآل إلى ما هو عليه الآن؟ فانبرى أحد الشيوخ قائلاً بأن هذا الإنسان مسكون بشيطان المال ومأواه جهنم، وقرأ الآية التي تندّد بالذين يكنزون الذهب والفضة وهم يكنزون في بطونهم ناراً، وهؤلاء مأواهم جهنم وساءت مصيراً.

ومن إحدى زوايا بيت الإمام تباهى شاب معمّم حديثاً من مثقفي البلدة ببيت من الشعر حفظه من المرحلة الإعدادية:

لكل نقيصةٍ في الناس عار وشرُّ معايب المرء القمارُ

مختار البلدة الملاصق للإمام وشوش له، على ما روى عبّود وتكهّن، بأن الرجل مدعوم من أعلى. وعلينا التريّث والبقاء على الحياد الآن قبل إصدار أي فتوى أو تشهير.

في ختام الاجتماع، بعد أن انتبه الإمام المعينّ من الدولة براتب مغرٍ، إلى الملاحظة الملغزة، تنحنح وهو يمسح لحيتَه الرمادية: أيها الأخوان دعونا نؤجل المسألة الآن، ونرسل وفداً سرياً بقيادة المختار ينصح الرجل لعله يثنيه عن هذا الأمر المنكر فيتوب ويعود إلى صراطه المستقيم. فثواب الإنسان وعقابه عند الله لأنه أحكم الحاكمين.

13

داخل هذا المناخ العدائي أحس وهيب الساهر أنه منبوذ ومعزول، شبيه ذئب على أطراف الغابة.

ومع أن الأرباح فاقت ما يتصوره، وحصة المرزوقي وصلت عبر إيلينا، لكنه ظل متوجساً، نهب هواجس غامضة وتهيؤات كانت تتراءى له كأشباح مفزعة في أحلام النوم التي تحوّلت إلى كوابيس.

ففي إحدى الليالي بعد أسبوع من لعبة الأبوات المدوّية، والتي تصادت أخبارها إلى البلدات المجاورة والنائية، رأى في حلم غريب طيفاً يشبه زوجته بهيّة. بدا الطيف مشوّهاً. الوجه مدمّى كأنما شطب بشفرة حلاقة. وعيناها الزرقاوان اللتان كانتا تشعّان في الحياة بهاء وصفاء كمياه الينابيع، بدتا له داخل الحلم غائرتين تشبهان عيني خفاش ميت. كما لاحت له نصف عارية من خصرها حتى الأعلى وبلا نهدين، وتراءى له شعرها، الذي كان بلون سنابل قمح الصيف زمن الحب قبل الموت، رمادياً، مضفوراً بأوراق أشجار الدلب الصفراء الخريفية، لكنها أوراق تشبه أوراق المال التي كانت تُقذف على المائدة الخضراء خلال اللعب، على هذه الأوراق رُسمت أزهار وجعلان ودويبات تشبه ديدان الأرض.

وحين اقترب منها ليسألها: لماذا هي هكذا الآن؟ وماذا حدث لها بعد الموت؟ قالت: لماذا فعلت ذلك؟ وكيف حوّلت المكان المقدس إلى بؤرة من الدنس؟ وإذ حاول شرح حالته المضطربة، وضياع روحه في متاهة الزمن، سألته عن النسيان ونزع صورتها من غرفة النوم وهما معاً في احتفال وثياب العرس. وقبل أن تختفي كطيف عبر ضباب الحلم سمع صدى عبارة ملتبسة:

- ضاعت روحك بعد أن ضيّعت طريق البحر.

14

الحلم الغريب بلبل ذهن الرجل وشوّش روحه. بدا مطوّقاً بحصار محكم يهدّد بالانهيار.

وهو يرشف قهوته الصباحية على الشرفة المواجهة للبحر وأشجار الحديقة، استعاد شظايا من كابوسه الغامض والنبوئي. تذكر إشارة زوجته حول النسيان وغياب الزمن القديم في الغياهب البعيدة، وكيف ضيّع الطرق إلى البحر. بحرهما الذي عشقاه في

أزمنة الحبّ والخطوبة، أيام كانا يرحلان إلى الشاطئ الذهبي في الأصياف الحارّة.

ما الذي جرى بعد اثنين وعشرين عاماً؟ كيف ولماذا تبدّلت الأحوال بعد الموت؟ هل الموت هو العدم أم أنه الوجه الآخر للحياة. الوجه الأكثر خلوداً وقسوة ودلالة على سرابية الحياة؟ وأنت أيها الرجل المسمّى وهيب الساهر لماذا انحرفت نحو الدروب الموحلة الموازية للموت في الحياة؟

كان الآخر المضمر فيه، والذي استيقظ في لحظة تأمل، يوالي أسئلته الصعبة.

في فضاء الذاكرة المؤنبة لاحت على الشاشة تعاليم المرزوقي واستدلالاته اللعينة.

ذلك الشيطان الذكي، والابن البارّ لعصره، اخترق سدود النزاهة والنقاء الرسولي، حين فتح تلك الثغرة الهشة في الحصن المتداعي، وقال بأن الزمان الجديد هو زمن الغابة والمكر، الوحش الكاسر فيه هو السيّد، أما الحَمل مثلك يا ابن خليل الساهر فهو الوليمة.

عبر مشهد من تيارات ذاكرته، ومأزقه الراهن، تساءل عن أسباب هذا الانزلاق الذي وصل إليه. هذه السقطة التي تورّط فيها، وما عاد قادراً على الانسحاب. بدا له الأمر كمن هوى من قمة جبل مدحرجاً على ظهره عبر انحدار حادّ باتجاه هاوية.

عَبَرهُ الزمان القديم شهباً متهاوية.

كان، وكان، وكان، الأسطوانة إيّاها التي امّحت حكاياتها من كثرة ما رُويت واستُعيدت، والآن من أنت أيها الجديد الآخر. المقامر المعزول عن العالم ونبض الحياة الحيّ؟

هنا في هذه البلدة التافهة، الثرثارة، النمّامة، والتي لاتروي سوى الفضائح، ناسجة زمناً من الغبار والأكاذيب والتقارير الأمنية،

مردّدة كما الببغاوات أقدارها اللاهوتية، وصلواتها الفراغية. وأنت في بيتك المعزول، تلوكك الألسن، وتسوطك الاتهامات، ضحية مجانية لزمن الخراب والفساد ورائحة العفن، لا ترى من العالم سوى مشهد ورق اللعب وهو يوزع على المائدة الخضراء. نبض قلبك يرتفع وأنت تتوقع الورقة الرابحة، تجمع المال المتراكم وتجرفه بين ذراعيك، وإذ تخذلك تلك الورقة الرابحة والمنتظرة في لحظة التوقع والشهوة المستترة تتوتر الأعصاب ويتسارع نبض القلب. ومع الزمن وليالي السهر يشحب الوجه ويبدأ وميض العينين بالانطفاء وتنهك خلايا الدماغ.

وفي فضاء هذه التيارات المضطرمة تتوقع المداهمات رغم تطمينات إيلينا والمرزوقي. تحصي الأرباح والخسائر فترتفع كفة ميزان الأرصدة، لكن كفة ميزان الروح تهبط.

العالم الآخر الأخضر، الغائب، يُمحى أو يختزل إلى لحظة استمتاع شبقي تعوّضه أوراق اللعب الملوّنة بديلاً عن سهب الحياة المديد، واخضرار الغابة وعذوبة البحر والحب والمرأة التي ماتت متوارية في كهوف النسيان.

وحين تسأل عن العطب أو الصدع أين يكمن؟ أهو في الأعماق الهشّة والموشورات المعتمة للنفس، والطبقات المتراصة تحت السطح الخارجي؟ أم أنك عبر التسويغ المراوغ، ومحاولة التبرئة، كنت ضحية لوسوسات ذلك المرزوقي الماكر؟

حينذاك، وأنت داخل هذا الزوغان الغائم في الرأس، ستقول لزوجتك التي ماتت إذ تصحو: سامحيني يا بهيّة. أنا في التيه الآن أغوص في الرمال المتحركة بعد أن ضيّعت الجهات.

15

في الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة كما تشير ساعة

الجدار، بعد منتصف ليلة ماطرة، وكما روى بعض اللاعبين فيما بعد، سُمعت طرقات عنيفة على بوابة الدار، صاحَبَها وقع أقدام في الحديقة، ثم اهتز باب الصالون بثلاث ضربات من أعقاب بندقية. وقبل أن تُجمع فيش اللعب والأموال وينهض اللاعبون مذعورين عن كراسيهم، كانت عناصر مدنية من فرع الأمن الجنائي توجه مسدساتها وبنادقها إلى صدور اللاعبين: دعوا كل شيء في مكانه ولا تتحركوا. فُتّشت جيوب اللاعبين ومحافظهم وأخرج ما بداخلها من الأموال.

داخل صمت أخرس ومذهول، في تلك الليلة الليلاء، قيّد وهيب الساهر مع نفر من اللاعبين بأيديهم، وقذف بهم إلى سيارة الأمن الجنائي، وإذ حاول الساهر الاحتجاج تلقى لكمة قوية من قبضة حارس عملاق ملتحٍ، أخرسته.

رئيس الفرع الجديد، المعتصم بنزاهة استعراضية، وصرامة رجل مندفع لفرض هيبته من خلال موقعه المسؤول عن الأخلاق والسلوك، في مدينة ملطخة بالفساد والرشاوى والتهريب والمحسوبيات، استقبل المعلّم وهيب الساهر، ذا التاريخ العريق والمدرجة سيرته في ملفات الأمن، بعبارة ترحيبية ملغزة:

ـ أهلاً. أهلاً بالضابط الوطني الشريف والنزيه. يا مرحباً بسليل نوادي قمار ومواخير العاصمة.

حين حاول الرجل المُهان، والذي ظن أنه متمترس برايته الرسولية البائسة ومحمييه في العاصمة، أن يشمخ وينتفج بماضيه، صرخ المقدّم في وجهه:

ـ اخرس أيها المقامر الوغد. أنت ومن يحميك تحت حذائي هذا. رافعاً حذاءه الأسود حتى حافة رأس الساهر.

واستطرد: أنا لا أُرشى كالذين كنت تدفع لهم. فهمت ياصرصور!

ـ أنا لم أقصد...

الصفعة التي أطارت الشرر من عينيه قطعت عبارته: أنت لست أكثر من حشرة. وبيتك ماخور قمار وشراميط. وأنا سأغلق هذا الماخور العفِن.

مع اللاعبين المذهولين من وقع الصدمة، حُشر الساهر في غرفة سجن الفرع، تدثروا على الأرض ببطانيات عسكرية مهلهلة تفوح منها رائحة حموضة العرق والرطوبة والغبار والبقّ. وهو مستلق يدخن بصمت سمع سؤالاً احتجاجياً حول حراسة البيت وحمايته وضمانة المداهمة. أحد اللاعبين انهار ودخل بوابة هذيان الغيظ والبكاء: لقد خدعتنا يا ساهي. دمّرتنا ورميتنا في الوحل. لماذا حدث ذلك وأين صاحبك الحامي سليم المرزوق الآن؟ اندفع يصرخ ويشتم بأصوات تشبه العواء. لم يسمع اللاعبون جواباً من الساهر. كان الرجل موغلاً في صمته الكئيب. الصمت الضاغط كصخرة على بوابة القلب. عبر تيار الذاكرة مرّ شريط الاعتقال في السجن العسكري قبل ثلاثة وعشرين عاماً. الاتهام والاستجواب والعقوبة القديمة. ثم الاتهام الآن. المتّهم بالنزاهة والصدق والجهر بالحقيقة، فيما مضى. والمتّهم بالفساد والمقامرة والعار، الآن.

وهو المُلقى، كنفاية، بين زمنين متباينين، كيف أُودي به إلى هذه الحالة الغريبة؟ ولماذا يرى نفسه في مرايا الزمن وهو في هذه الهاوية؟

حتى الفجر لم ينم. شخير اللاعبين ووساوسه الداخلية وتأملاته والتدخين، سرقت النوم من روحه اليقظة. عبر التداعيات المختلطة من حياته تذكّر لعبة الأبوات وكلمة ذلك الرجل الغامض عن ضرورة الحذر من المرزوقي، ذلك الثعبان المغوي والذي عرفه صديقاً وفيّاً في الماضي. كيف تلوّن وتحوّل مع العصور والأزمنة، هو من أوحى له بفكرة المقمرة ودعمه بالمال ثم بلعبة الأبوات «التاريخية» كما سمّاها، وطمأنه بحماية البيت من المداهمة.

كومضة برق لمع في رأسه سؤال غريب: أيكون هذا

الأسخريوطي هو الذي سلّمه أخيراً؟ تبعه سؤال آخر: أم أنه ضحية صراع حدث بين المرزوقي وأبي الهيثم انتقاماً من خسارة لعبة الأبوات؟ وهل لإيلينا دور في هذه المسرحية الخرقاء؟ أم أن هؤلاء جميعاً قرروا الخلاص منه؟

ضحى اليوم الثاني أُفرج عن اللاعبين واحتُفظ بوهيب الساهي، كما أسماه اللاعب المنهار، قيد الاستجواب. في المساء نُقل إلى غرفة أفضل من سجن النظارة، فيها سرير عسكري منفرد وطاولة وكرسي. جاءه عنصر من الحرس بالقهوة صباحاً، ووقت الغداء قدّمت له وجبة من الرز واللحم والفواكه، وحين طلب دخاناً أحضر له الحارس علبة سجائر مارلبورو: هذه من المعلّم. قال الحارس وهو يهمّ بالخروج تاركاً الباب نصف مفتوح.

هذه الإيقاعات الجديدة خفّفت وطأة المرارة والمهانة، كما أدخلت إلى نفسه نوعاً من السكينة والاستيهام بأن حالته ربما وصلت إلى المرزوقي الذي أوصى به.

بعد يومين استدعاه رئيس الفرع إلى مكتبه. ما كان جهماً ولاصلِفاً. بدا وهو يشير إليه بالجلوس على الأريكة الجلدية السوداء رجلاً هادئاً وطبيعياً. طلب له قهوة وهو منهمك بتوقيع أوراق وملفات والردّ على الهاتف.

هجس الساهر في أعماقه: الأمور تسير نحو الحلّ ولابد أن القضية وصلت إلى العاصمة. وفي لحظة غفلة وخيلاء معتمة، هناك في البرّ المظلم ربما، وسوست له تخيلاته بأن رئيس الفرع لن ينجو من هذه الغلطة المريعة التي ارتكبها. وربما لن تمضي أكثر من أربع وعشرين ساعة حتى يُنقل إلى أقصى الأقاليم الحدودية، عقاباً له على هذه الفعلة النكراء. قال لنفسه وهو يشرب القهوة ويدخّن مستعيداً بعض أشلاء كبريائه وكرامته المُهانة: أتراني أغفر وأشفع له إذا ما استجداني وطلب الصفح عن إهانته!

ولأنه كان مايزال تحت تأثير الصدمة نحّى حسّ الغفران. داخلته مشاعر من الثأر والتشفي حين تصوّر مفاجأته بوصول المسألة إلى أبي الهيثم، وقدوم إيلينا شخصياً إلى الفرع لتصحبه مع بعض الأبوات إلى منزله.

ـ عليه أن يدفع ثمن خطئه الجسيم. هجس وهو يرشف آخر قطرة من قهوته.

بعد أن انتهى رئيس الفرع من التواقيع والهواتف التي رنّت مراراً، انتبه لوهيب الساهر: أهلاً أستاذ. أمس كنّا قساة عليك أكثر مما ينبغي لكنك تعرف الواجب والمسؤولية. إذا تُرك حبل الأمن على الغارب تخرب الدنيا ويتسيب البلد.

واستطرد بعفوية لا تخلو من حزم وصرامة: الناس هنا، كما تعلم، اعتادوا المحسوبيات والرشوة والدعم من أعلى. القوي يأكل الضعيف والغني يلهط الفقير والقانون في الكتب فقط. علينا أن نكون حماة القانون في الواقع. أنت يا أستاذ وهيب تخطيت القانون الجنائي وفتحت بيتك نادياً للقمار. أيجوز هذا وأنت رجل لا غبار على وطنيتك! أستاذ وخريج جامعي كيف ينحرف ويتحول إلى مقامر؟

حاول الدوران حول الاتهام، والدفاع عن حالته بنفي تهمة النادي، وصفة المقمرة، وأن ما يجري من لعب ليس أكثر من سهرات أصدقاء يتسلون في مساءات محدّدة وأيام العطل.

على نحو مفاجئ لحيثيات التحقيق انعطف رئيس الفرع بالأسئلة باتجاه آخر وهو يخرج ملف الساهر.

ـ أنت أستاذ جامعي وتدرّس التاريخ أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ وناضلت في الجامعة ضد الديكتاتورية وسجنت مع سليم مرزوق وآخرين من الرفاق أكثر من مرّة خلال المظاهرات؟

ـ نعم.

ـ ودُعيت إلى الخدمة العسكرية وشاركت في الحرب ضد العدو الإسرائيلي؟

ـ أدّيت واجبي.

ـ وسجنت بعد الحرب لانتقادك أسباب الهزيمة؟

ـ هذا ماجرى.

ـ وحين سُرّحت وأتيت إلى بلدتك احتفى بك الأهالي ورفعوك على أكتافهم، وهتفوا للوطني المناضل والنزيه الذي رفع اسم بلدته ووطنه عالياً، حتى أنهم فكّروا بإقامة نصب تذكاري لك في ساحة البلدة. هذه الواقعة صحيحة؟

ـ نعم.

ـ الآن قل لي وأجبني بوضوح وإقناع على أسئلتي: كيف ولماذا محوت ذلك التاريخ الناصع وسقطت في وحل القمار؟ ألم تشعر بلحظة تأنيب أو محاسبة داخلية بينك وبين نفسك وأنك انحرفت أو خنت ذاتك عبر تلك السنوات المخجلة؟

كانت كلمة: الآن. على طرف لسان الساهر، لكنها ظلّت معلقة في سقف الحلق.

ما كانت المباغتة في غياب ذكر من توهّم أنّهم توسّطوا له، إنما الفجاءة أتت من صدمة السؤال الصاحي على لسان رجل الأمن الذي أهانه مرتين: بالأمس وهو يداهمه في بيته مقامراً ثم يصفعه في مكتبه، والآن وهو يداهمه في أعماقه ملتبساً بالانحراف عن تاريخه القديم.

كيف يحدث هذا؟ هذا الإنسان المندمج بالسلطة هوذا يكشف قناعه. يعرّيه أمام المرآة إلى نصفين. الما قبل والما بعد. لكأنهما يتساويان الآن في هذه البرهة الرجراجة إذ تلتبس الحقيقة وترتجّ عبر أسئلة رئيس الفرع الصادمة: لماذا أنت الآن ما أنت عليه؟ أما من درب آخر؟

رنّ صدى سؤال زوجته القديم، التي غابت حتى من ذاكرته: لماذا ضيّعت دروب الغابة والبحر؟

بدت له أسئلة المحقق منطقية ومعقولة في جوهرها الظاهري، لكنها بعيدة عن الأسباب المضطرمة في الأعماق، ونائية عن المشاعر التدميرية للروح بعد أن قُصفت بالنبذ والتهميش، وأُقصيت عن فضاء الأمل والفعالية الخلّاقة.

هو الآن وحيد في هذه الظلمة أمام الجدار والسقف في مواجهة اللاعدالة. وهو المرمى في الحصار، المواجه بالخطأ الفادح ولا شيء سوى شظايا الماضي الغابر. أطياف من فتوّة قديمة تشبه فتوّة المهور المفعمة بالحماسة وعواصف أوهام تغيير العالم، وهي تندفع بطاقة لا حدود لها. أطياف تحوّم في ردهات المدرسة والجامعة والشوارع مع أصدقائه ورفاقه في الحزب. صبوات وأصوات ودويّ هتافات تجرح الحناجر مموّجة هواء الفضاء بصرخة الأمل في زمن الحرائق. الزمن الذي كواه ووشمه آن كان يعبر باتجاه المطهر نحو الجنة الموعودة. تأتي الأطياف وتتوارى، كما بروق في سماوات سحيقة. الحبّ والمرأة الجميلة. أحلام تشييد بيت مزهر بالرضى والأطفال والسعادة العائلية. الهجس بأسفار عبر العالم ورؤية الدنيا الغريبة والمدن الغامضة واكتشاف العالم الذي قرأ وسمع عنه في الكتب. أشواق السندباد الحالم الذي سيروي، بعد عودته من رحلاته أخبار الدنيا وجمال السفر عبر البلدان الحضارية، عن حرية الإنسان والتقدم البشري، وما شاهد من العجائب والغرائب في تلك الأقاليم السحرية.

تخلخلت الأطياف ثم امّحت عبر سؤال المحقق الصادم: ولكن أنت يا أستاذ وهيب لماذا تحوّلت إلى مقامر في بلدة صغيرة بحجم حبة بندق إذا ما عطس الإنسان فيها يسمعه الجميع؟

تحت إيقاع السؤال اللاجواب عليه بشكل مباشر وحقيقي، غابت الصرخات القديمة، كما اختنقت الأحلام الموهومة.

ثمة طفل مغفل سقط فجأة في بركة وحل.

دُوهِمَ في غفلة من الزمن والوعي داخل مصيدة لا يدرك الآن كيف نُصبت أشراكها.

16

في إحدى جلسات الاستجواب، بعد أن انزاح الإحساس بالعداء والمهانة بين الرجلين، سأله رئيس الفرع سؤالاً مفاجئاً حول انضمامه إلى خلية سرّية بعد طرده من الجيش. خلية معارضة تنتقد السلطة وتدعو إلى تغييرها.

دُهش الساهر إذ رأى نفسه مواجهاً بتهمة جديدة أكثر خطورة. حاول الإنكار والمراوغة لكن المحقق واجهه بحقائق ووقائع ثابتة.

هكذا بعد تلك الأعوام هي ذي الأحداث المنسية تُنبش من قبورها. يرميها رئيس الفرع في وجهه كجمرة لاهبة. هو الذي جاهد لنسيان تلك الحالة المغامرة التي اندفع فيها ربما تحت تأثير الغبن والمهانة اللتين تعرّض لهما بعد اعتقاله وطرده من الجيش على ذلك النحو المشين، أو لعله كان مقتنعاً آنذاك بضرورة تغيير النظام والسلطة نحو الأفضل. وليخفف رئيس الفرع من وقع الصدمة على الرجل المطوّق والأعزل قال له: لا عليك. في ذلك الزمن كنتُ متعاطفاً معكم بنسبة ما. لكنني كنت أعتقد أن التغيير ممكن من الداخل. كان لابد من تطهير النظام والسلطة من الفساد

والمحسوبيات والرشاوى والتجاوزات غير القانونية. واستطرد المقدّم: أنتم كنتم ترون التغيير بالقوة ومن خارج السلطة وهذا ما باعدنا فيما بعد.

من أين انبثقت هذه الحادثة المنسية؟ ولماذا الآن؟

أحس الساهر بوخزة تشبه نصل مدية تقترب من حافة القلب.

السرّ الذي ظنّه مُطوى في أقاصي الكهف، هوذا يكشف الآن تحت الضوء الساطع.

الأسئلة تتوالى. يرشقه بها المحقق من الجهات كلّها، وهو الآن في زاوية تهمة جديدة أكثر خطراً من تهمة المقامرة.

يصدم رأس المدية حافة القلب. يحسّ الرجل بسخونة أول قطرة دم تخرج على شكل آهة أو صرخة مكبوتة. هو المحاصر والمعزول، المنحني على حافة الهاوية ولا يحتاج سوى ركلة ليهوي.

من غيب مبهم جاءته حالة صحو: أكان يثأر عبر حياده ولامبالاته ولهوه ومقامراته؟ وممن؟ أم كان يدمر حياته ويأخذها إلى الهلاك بلا وعي منه؟

هو الذي ظن فيما بعد أنه ينقذ روحه بعيداً عن المحارق وأفخاخ السياسة وبطولات دونكيشوت الوهمية في حروب الطواحين، حين تنحّى أو نحّي إلى الهامش راسماً لنفسه دائرة صغيرة، في حيّز ضيق، يتسلى فيه مع أصحابه باللعب ليزيح الملل وضجر الأيام الرتيبة وذكريات الماضي وضوضاء الزمن.

وإذ سأله المحقق عن رفاقه القدامى، ملمحاً إلى أزمنة العمل السرّي، شعر الساهر بأن الرجل يواصل مهانته وتحطيمه.

ـ أنت تعرف أن بعضهم قضى تحت التعذيب، وآخرون دُجّنوا، والبعض الآخر خرج حطاماً من السجن. أما أنت...

بدا صمت المحقق وعدم إتمام الجملة موازياً لإبرة مسمومة غُرست تحت الضلع الأيسر.

أعادته إشارة المحقق إلى الزمن المنسي الذي تلا طرده من الجيش، حين فكر مع المرزوقي وآخرين في الانضمام إلى خلية من خلايا العمل السرّي.

بعد أقلّ من شهرين من الانخراط في التنظيم انسحب سليم مرزوق واعتقل بعض أفراد الخلية بتهمة الإعداد لمؤامرة. ويومها نجا وهيب الساهر من الاعتقال بعد أن نصحه المرزوقي بضرورة الانسحاب لأن الخلية مخترقة من الأمن ولا جدوى من هذا العمل الطائش. وفي أعقاب الاعتقالات سرى الخبر أن المرزوقي كان الواشي.

17

في سياق الاستجواب بدأ الساهر يدرك نوعاً من الرغبة السادية المستبطنة لدى المحقق لدفعه بهدوء وعلى مهل نحو الحافة التي لاعودة منها، وهو يعرّيه ويكشف الغطاء عن ثغرات الخلل في ماضيه، موقظاً في داخله حسّ التأنيب والشعور بالذنب. عَبَرَته لحظة تأمل ذاتي، تراءى له من خلالها موشور من حالته، أضاءها المحقق عبر التداعي المنسي والمزاح نحو الطبقات المظلمة.

ـ أي الرجلين أنت. المناضل أم المقامر؟

تقاطع السؤال في الصمت داخل الرجلين.

وهو ينفث دخان سيجارته في فضاء غرفة التحقيق، شعر بالاختناق، لكأن روحه تصعد مع ضباب الدخان. بأسى حكى عن الخيبات وانكسار الأحلام وأزمنة النهوض وإيماضات الأمل، وأنه

في برهة ما أحسّ باللاجدوى والشعور بالإقصاء والتهميش والمهانة.

ـ كنت إنساناً ضائعاً فقد الاتجاه.

وحين سأله رئيس الفرع إن كان يرى في سلوكه الراهن نوعاً من السقوط، قال: ربما كان تعويضاً خائباً.

ـ بالنساء والقمار والخمر ومعاشرة الحثالات تعوّض عن المبادئ. أي تعويض خسيس هذا الذي لجأت إليه؟

كان رئيس الفرع يواصل حصاره من خلال الأسئلة، دافعاً بالرجل الموقوف نحو الزوايا الضيقة. الرجل الذي كشف، في برهة عبث ولامبالاة، ظهره العاري للعدو، حين تخلى عن سلاحه مخلداً للراحة، بعيداً عن ساحة الرمي كما توهّم.

بدت المحاكمة غير متكافئة أو عادلة بين الخصمين، غير أن الخطأ الذي سيُدرك بعد فوات الأوان، وعبر الاستجواب المتنامي للورطة التي وقع فيها وهيب الساهر سيعطي ذريعة لرجل الأمن كي يهشم من خلال بعض الثغرات الهشة، دفاعات الرجل المشادة على أساسات ماضٍ قديم، وحنين سرابي لزمن ولّى إلى غير رجعة. بدت الحصون الغابرة تتداعى الآن، رغم فسحة الأمان في مناخ المكاشفة العارية بين الرجلين. المكاشفة التي تراءت كأنها فسحة صداقة، فتحها المحقق ومدّها من موقع القوّة، والتحكم بخيوط النسيج الذي يحوكه بحرية لاصطياد الضحية.

في فضاء فسحة الأمان والصداقة الوهمية المترائية لوهيب الساهر، كان بإمكانه قول أمور كثيرة شديدة الخطورة حول الفساد واللصوصية والقمع وتخريب الضمائر بالرشاوى والمخبرين. حول الحروب الخاسرة وأسبابها وغياب القانون وسيطرة الرعب في أعماق البشر. حول التعذيب والقتل والمعتقلات والاغتيالات. كما

كان بإمكانه سؤال رئيس الفرع: لماذا يُعتقل رجل مقامر في الوقت الذي يُغضّ الطرف فيه عمن يقامرون بالوطن ويهرّبون ثرواته إلى الخارج. هؤلاء الذين حوّلوا الوطن إلى مزرعة يتقاسمونها فيما بينهم بينما الشعب يرزح تحت وطأة المجاعة والفقر والهروب خارج الوطن بحثاً عن العمل ولقمة العيش.

كان بإمكانه أن يهدم الهيكل صارخاً: عليّ وعلى أعدائي. لكن تلك الصرخة لو خرجت ستكون بمثابة المصيدة المعدّة له، هو الذي تخلّى أو ربما ما كان قادراً على الصراخ الآن. وهو الواقع في قفص الاتهام، والضحيّة لجرم صغير في حجم ورقة بوكر، لاتساوي أكثر من تهديم سمعة لرجل فرد سقط خطأ في هاوية حريته واختياره الذاتي.

حين سيسأله رئيس الفرع عن اختيار ما هو مفيد ونافع خارج فعل المقامرة، حتى على المستوى الشخصي، سيقول الساهر بهدوء المهزوم، وعلى حوافّ الصرخة الجماعية: المفيد والنافع ترسمه حرية الإنسان ورغباته في الحياة. بالنسبة لي كنت أحقق حريتي ورغبتي في ممارسة اللعب.

وبين الجدّ والمزاح سأل: ولكن لماذا أنتم ضد اللعب؟ هي أموالي التي أقامر بها لا أموال الناس. أنا لم أسرق أحداً ولم أكن في موقع مسؤولية أنهب من خلالها. ألست حرّاً في تبديد نقودي كما أشاء؟ إذ ذاك صدمه رئيس فرع التحقيق، مستعيداً حالة المواجهة الأولى بعد المداهمة، بعبارة جارحة: لكنك حوّلت بيتك إلى وكر فساد ومقامرة بأموال الآخرين ونساء مشبوهات. لقد جنيت على عائلات وأسر في البلدة التي رفعتك فوق الأكتاف رمزاً للنزاهة والوطنية والشرف. أين أنت الآن؟ ألم تحاسب نفسك يوماً عن هذا الانحراف والسقوط؟ أما كان هناك من اختيار آخر؟

وقال الرجل المحاصر مسوّغاً حالته بأن البلاد تعجّ بأندية القمار والبيوت السرّية المليئة بالعهر والفساد، وهذه يرتادها كبار المسؤولين، وأنتم تعرفون جيداً ما الذي يجري تحت الأرض في ظلمة تلك البيوت. لماذا أنا هذه الضحية الصغيرة من يدفع الثمن؟

ولأن فسحة الحوار بدت غير متكافئة ومحدودة المدى، لم يسترسل الرجل المستجوَب في سرد الوقائع والمخازي والدناءات والتسفيل ومافيات السلطة وأجهزة الأمن اللاقطة للتنفس.

هو يدرك في تلك الفسحة الضيقة للحوار بأن استرساله أو فضحه لما يجري في الظلام وتحت الأضواء الخافتة، وعبر الأقنية التي تصل البلاد بما وراء البحار، كافٍ لمواراته عن الشمس وزجّه في غياهب لا يرغب ارتيادها.

كان الساهر مايزال تحت هاجس الأمل بأن المرزوقي لابدّ أن يفعل له شيئاً لإخراجه من هذه الورطة اللعينة التي وقع فيها.

ـ أستاذ وهيب. أنت متعب. عليك أن ترتاح الآن.

قال رئيس الفرع بغتة. ضغط الجرس فانتصب حارس بثياب مدنية. أدّى التحية: نعم سيدي!

ـ خذ الأستاذ إلى غرفته. تصبح على خير والصباح رباح إن شاء الله.

ما كاد الرجل يرتدي منامته ويتكئ على السرير العسكري حتى جاء العشاء مصحوباً بنصف ليتر من الويسكي فوق طبق عامر بأصناف من اللحوم والسمك والخضار والمتبلات المغلفة بالسيلوفان. وجبة عشاء خاصة طلبت للتو من أحد المطاعم الفاخرة في المدينة.

بدا الأمر غريباً ومدهشاً في آن.

حين بدأ بفتح الأطباق الكرتونية والاستعداد للعشاء لمح ورقة صغيرة مطوية تحت أحد الأطباق. تناولها وفتحها: مع تحيات إيلينا والمرزوقي.

لم يصدّق ما يقرأ. بدت الرسالة المقتضبة منارة في بحر مظلم. نافذة للضوء في زنزانة معتمة.

ـ أنت لم تُنس إذن! قال في نفسه وهو مغمور بالفرح والشعور بانفراج الغمّة.

صبّ كأساً وأشعل سيجارة. وهو يحدق في السقف وخيوط الدخان التبس الأمر للحظة، عبر استغراقه في تأمل معنى الإشارة التي جاءت متأخرة.

ـ أهي حقيقية أم لعبة أمنية؟ ولماذا حدث الأمر بهذا الشكل المسرحي الغامض؟

وقع فريسة بين فكّي اليقين والشك.

قال اليقين: هم قادمون لإنقاذك.

وقال الشك: إنهم يهدمونك وهم يتقاذفونك ككرة. أتتذكر لعبة القط والفأر؟

ـ لكنني بريء. لم أرتكب خطأ فادحاً يستحق هذا العقاب.

ـ ما من أحد بريء في هذا العالم.

المرزوقي، الإبن البارّ لعصره الوحشي، كان يسميه الساهر المغفل، القادم من جزيرة حي بن يقظان والراضع من حليبِ الغزالة بعد أن أضاع أباه ورمته أمّه في اليمّ داعية له: اللهُمَّ اسقكَ من نبع الكوثر يوم العطش الأكبر.

وقال المرزوقي ذات ليلة: هوذا الكوثر يفيض على العباد وأنت لا تعرف كيف تشرب من النبع الذي يفيض حولك.

وحين رشف أول جرعة داهمه الدوار.

أيكون النبع مسموماً وهو لا يدري؟

أحسّ بأنه يعبر متاهة، والمتاهة تطول، تلتوي ويتراكم غموضها، لكأنه يدخل وادياً من الضباب لا نهاية له.

ما كان قادراً على التركيز والتحكّم بحالته المشوشّة. وعبر الاحتمالات التي تؤرجح ضباب وعيه، خطرت له فكرة دسّ الورقة

من طرف رئيس الفرع ليوازن حالته النفسية التي شارفت على الانهيار، بعد شهرين من التحقيق والعزلة ونسيان الآخرين. لكنه استبعد الفكرة وأزاحها وهو يتساءل: كيف يمكن بناء علاقة بين مقامرين محترفين وأمن جنائي. هذا يشبه صلة صداقة بين صياد وطريدة.

مع الكأس الثانية والتأمل تداعت للرجل المشوّش والمعزول عن العالم ذكريات من الماضي، تفاصيلها كانت منسية فيما مضى.

ذات ليلة ألمحت إيلينا عبر زياراتها السرّية لوهيب الساهر بأن المرزوقي قد يسافر إلى الخارج، لأن الأعمال صارت صعبة في البلد، والأمور غير مستقرة اقتصادياً. وإذ سألها عن المخططات التجارية لسليم مرزوق والعمل في الخارج قالت بأن تلك الأمور من أسراره التي لا يفصح عنها.

وقال الساهر: أنا أعرف بأنه ابن شرموطة ويتاجر حتى بأمه. ولكن ما علاقته بذلك الرجل الغامض أبي الهيثم. هل هو عرّابه أم شريكه أم ماذا؟

كانا في تلك الليلة في مناخ من المكاشفة، وهما على أهبة النوم معاً في سرير واحد.

اغتمّت المرأة وصمتت. نهضت إلى المطبخ لتعدّ القهوة، وحين عادت لمح الخوف تحت صمتها وهربها من الجواب.

مطاردة الأسئلة وإلحاحات الساهر حول ما إذا كانا شريكين في عمليات التهريب أو استبدال الأموال أو السمسرة مع شركات أجنبية لم تجب عليها إيلينا. كانت تشرب القهوة وتدخن في ذلك المساء الصيفي على الشرفة المضاءة بأشعة القمر، غارقة في جوف أريكة مريحة، داخل قميص نومها الزهري المحسور إلى أعلى الفخذين، وداخل صمتها.

لابدّ أنها تعرف أسراراً تخاف البوح بها، خمّن الرجل وهو يتأمل صمتها.

في ذلك الزمن ما كان الرجل مهتمّاً بالكشف عن الأسرار الغامضة إلى حدّ الإحراج. ما كان مهماً في ذلك الوقت هو سيولةُ الأموال والحقائب المليئة بالعملة الصعبة ومواصلة اللعب، والربح المؤكد.

كان ساهياً عما سيأتي وما سيكون، وما هو عليه الآن في مأزقه الراهن.

المرزوقي وأبو الهيثم وسائر الأبوات واللاعبون وإيلينا كانوا، فيما مضى حول المائدة الخضراء، وجوهاً ممحوة الملامح وبلا تاريخ.

هم الآن على الكراسي حول طاولة القمار وأمامهم المال والفيش الملوّن المستبدل. يدخنون ويشربون الويسكي. يتناولون الورق ثم يتراكم المال وسط المائدة.

دُمى أو شخوص متحركة كخيال الظلّ. رموز بأيدي شبه بشرية، وأفواه صامتة. أصوات مختزلة بمفردات محدّدة، داخل صمت انفجاري مؤجل ومضغوط في جدران كهوف ملغومة بالجشع والشهوة والأنانية، وزهو امتلاك المال في برهة الحظّ المتألق.

الآن يتوقف قطار ذلك الزمن السادر.

يحدث ذلك بغتة من خلال حظ عاثر. من خلال سهوة، وحالة غفلة ما كانت في الحسبان.

وهو يحدّق في سقف حجرة التوقيف سأل نفسه: من أية فجوة هاجمتك الذئاب؟

وقال الآخر فيه: لماذا كنت نائماً بعينين قريرتين في الغابة أيّها الأرنب؟

ستقول إيلينا وهي تضع ساقاً فوق الأخرى وعريها يلمع تحت الأشعة: لا تسألني عن الأسرار. أنا امرأة تعرف أشياء كثيرة ولا تعرف شيئاً. لو بُحتُ بما أعرف سأُمحى من الوجود. هل تفهمني؟

بدت هي الأخرى مثله. عالقة في الشبكة الجهنمية للوحش الغامض. إله الظلمات الممسك بأعمدة الهيكل وحرية الحياة والموت.

الآن يتهاوى الزهو القديم لرجل كان يتوهم أنه في قامة الرياح وقوّة الصخر. والآن يشعر بأنه شبيه حشرة ملقاة فوق هذا السرير العسكري، غير قادر على جواب السؤال: أين يكمن الخطأ؟

كانت المكابرة الداخلية تواجه العالم الخارجي، كما بدا الاعتراف بالأخطاء الذاتية حالة مستعصية لا تليق بالرجل المظلل برايته الرسولية وميراثه التاريخي.

لاح من الصعب رسم حدود البراءة الذاتية وخط الاعتداء الخارجي.

وتساءل في عزلته إن كان هناك من تداخل واشتباك بين الحدّين كسبب ونتيجة؟ أم أن الأمور في تداعياتها شبه السريالية حيكت كمؤامرة ومصيدة تحتاج إلى ذريعة واهية لاجتياز خط الحدود، ولو بمقدار ملليمتر لتبدأ الإدانة والمحاكمة ثم الانقضاض؟ وهو مبحر في الحيرة والاكتئاب تراءى له طيف امرأة، في وجهها ملامح زوجته الميتة، لكنها ترتدي ثوباً من أثواب إيلينا الأرجوانية المثيرة. سأله الطيف سؤالاً غريباً لم يدرك مغزاه: لماذا ذهبت إلى السوق بعد أن كنت متجهاً إلى البحر؟

لابدّ أنه شرب أكثر مما ينبغي في تلك الليلة. دخّن نصف علبة سجائر ولم يأكل سوى النزر.

اختلط العالم في رأسه وتشوّش.

بدت المحاكمات الداخلية التي عُقدت على تخوم الوعي، والزوغان الضبابي للإدراك، تنحدر به باتجاه بوابات اليأس المظلمة.

وحين سأله الطيف الأنثوي، وهو شبه سادر، ومخمور، عن

البيت النظيف وفراش الزوجية الذي تلوّث بالروائح الكريهة، عرف الصدى الأسيّ للمرأة المفقودة.

من عينيه العصيتين على الدمع نفرت دمعة. قبل الآن نادراً ما بكى، سوى يوم وفاة زوجته التي خطفها الموت في أوج حبهما العاصف.

عبر حياته التي تلت موتها عاش حياته بمكابرة صلبة وعنيدة كأي رجل شرقي أبيّ النفس ومستقيم السلوك، منحدر من عائلة متوسطة اقتصادياً، ترفع رأسها بميراثها الديني والاجتماعي.

أضاف إلى هذا الميراث زهوه العسكري ومواقفه الشجاعة في الحرب، ثم ما تلا ذلك من اعتقال وسجن وتسريح.

كان ذلك قبل سقطة المقامرة، وهذه المحاكمة الغريبة التي دخلت شهرها الثالث في مبنى فرع التحقيق الجنائي، داخل الحصار والعزلة عن العالم.

الآن يبكي الرجل الصلب المطعون في كبريائه. الرجل الذي عرّاه طيف امرأة في لحظة توحّد.

ـ لماذا فتحت لهم ثغرة ليصطادوك؟

أكان هذا صدى صوت امرأة الطيوف؟ أم هو الصدى اللاواعي في الأعماق الجريحة؟

ولأنه عازف عن الاعتراف بالخطأ الذي لا يليق برجل عظيم واثق من نفسه، انحرف عن الجواب الذي ظلّ معلّقاً على هامش الزمن.

18

بعد أسبوعين من وصول الإشارة، التي بدت له بلا معنى، لم

يسأل عنه أحد، كما لم تبدر من رئيس الفرع، وهو يتابع استجوابه بلا مبالاة، ما يشير إلى أية توصية أو احتمال الإفراج عنه.

في الأسبوع الثالث من الشهر الثالث لاحت على وهيب الساهر ملامح انهيارات وهلوسات وطيوف هذيانات، مصحوبة بهزال جسدي وصداعات لا تحتمل.

كانت الكوابيس الغريبة تتراءى على شكل جروف صخرية، وهوّ ات يسير على حوافّها وجسده على وشك السقوط في جوف تلك الأعماق السحيقة.

ولأنه يحب الحياة، آملاً بالخروج من حصاره، والإمساك بخيط النجاة في اللحظة الأخيرة، كان مايزال في الطرف الأقصى من وعيه المضاء، أملٌ في النجاة، وأن ما جرى له ليس أكثر من ضربة كابوس. كابوس يأس من خلال وهم حالة طارئة عبرت به جرّاء التحقيق والعزلة.

وفي حالة صحو مفاجئة حاول أن ينفض رأسه واليأس المداهم، مزيحاً حالته الراهنة، مستعيداً عبر تيار ما تبقى من وعيه، العودة إلى الماضي والأمل والأشواق القديمة في محاولة مستميتة للإمساك بأعمدة الهيكل. بأعمدة الزمن المضيء والخادع في آن.

ـ أنت لم تكن في الزمن. والأمر سيّان.

لم يدر من أين انبثقت العبارة.

الحياة، الزمن، الطاقة الداخلية، كانت قد تداعت وتحللت كتلتها الصلبة، متطايرة إلى شظايا.

ـ أنت رجل من الماضي. شيء يشبه النفاية. سيقول له رئيس الفرع في الجلسة الأخيرة من الاستجواب كما يتذكر.

وسيتابع رئيس الفرع، خارج السياق وداخله، وهو يضغط المدية في الجرح: في الوقت الذي كانت فيه البلاد تحت الخطر

الخارجي كنت تمارس اللعب محايداً وأنانياً لا يهمّك سوى المقامرة والربح.

وسيستطرد رئيس الفرع: كنت فريسة حنين لماضٍ مندثر. ماضٍ يشبه سفينة جانحة غرقت في الرمل بعد أن داهمتها عاصفة.

بدا الاتهام الأخير كاشفاً للحقيقة التي لاحت ملتبسة وزائغة عن وعيه فما مضى. أدرك أخيراً بأن المحاكمة الجنائية ترمي إلى شيء آخر، ذريعته كانت مداهمة بيت للقمار.

على التخوم الأخيرة للعبور، داخل الأسئلة وبين الأسلاك الشائكة للاتهامات، بدت الحياة والحرية والموت تعبر فوق جسر واحد يقود إلى العدم واللاشيء.

19

في ذلك الفجر الربيعي دخل حارس الفرع، الموكل بالعناية بوهيب الساهر، غرفته، حاملاً قهوة الصباح المعتادة. على غير عادته كان الرجل مايزال نائماً. وهو يضع صينية القهوة على الطاولة لفت انتباهه قصاصة ورق كتب عليها: أيّها الموت. حان الوقت فلنرفع المرساة هذا البلد الكئيب يبعث فينا السأم. أيّها الموت فلنُبْحر... فوجئ الحارس بالعبارة الغريبة. وهو يستدير نحو الرجل المسجى شاهد قطرات من الدم شبه المتخثر فوق البلاط. كانت اليد اليسرى مدلّاة جانب السرير ودم الشريان المقطوع ينزف آخر قطرات القلب.

بحرون

تموز 2001

